الفصل الأول

الإمام محمد بن علي السنوسي

المبحث الأول

اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم

أولاً: اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي[1].

ولد سنة 1202 هـ صبيحة يوم الاثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي ﷺ، وكانت ولادته بضاحية (مَيْثاً) الواقعة ضفة وادي شِلْف بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر[2] وتوفي والده بعد عامين من ولادته، وتولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم ومنقطعة للتدريس والوعظ يحضر دروسها ومواعظها الرجال[3] واهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذي أظهر حبًا عظيماً لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيوخ

---

(1) انظر: المجموعة المختارة للإمام السنوسي، ص(7).

(2) انظر: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علي، (1/ 8).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، ص(11).

مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها مع تعهد عمته له، ومن أشهر شيوخه في تلك المرحلة، ممن أخذ عنهم القرآن الكريم مع القراءات السبع؛ محمد بن قعمش الطهراوي زوج عمته، وابنه عبد القادر وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته في الطاعون عام 1209 هـ وعمره لم يتجاوز السابعة وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الظمآن، المصباح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي، وغيرها مما هو من وظائف قارىء القرآن[1]، وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القرآن وإتقانه، شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسي في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج، وتربيته على العمل بما تعلم وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء، وتوفي ابن عمه عام 1219 هـ فجلس محمد بن علي عند شيوخ من مستغانم وهم: محيي الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولي الطرابلسي، وكلهم من جهابذة العلماء في زمانهم، ومكث يطلب العلم في مستغانم سنتين كاملتين[2].

وفي أوائل 1221 هـ خرج من مستغانم إلى بلدة مازونه ومكث بها سنة واحدة وتتلمذ على مجموعة من المشائخ هم: محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس المعسكري، وأبو المهل أبو زوينه[3].

وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها[4].

ثانياً: نبوغ مبكر:

كان الشيخ محمد بن علي السنوسي في صغره يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضي وقتاً طويلاً في التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع وكان يبحث عن عوامل النهوض، وأسباب توحيد صفوف الأمة، وإحياء الملة الإسلامية، وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالساً فوق كثيب من الرمال تظهر على صفحات وجهه المشرق علامات التفكير العميق، فلما سألوه عن السبب في ذلك، أجاب بأنه: «يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه، فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي

(1)و(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 10).

(3)و(4) المصدر السابق نفسه، (1/ 11).

يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد، والسبب في هذا انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم قد فرقتهم شيعاً وجماعات فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يعلمون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة. زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية، إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان، ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، ما زالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم لا هم لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين الوثنيين»[1].

ومع ذلك فقد بلغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، «وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق، فالإسلام في حالة التدهور المخيف». ثم ختم كلامه بقوله: «هذا ما أفكر فيه! فلما سألوه وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي ما ذكرت، أجاب: سأجتهد، سأجتهد»[2].

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة وذكر أن من أسباب هذا الضياع فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات، والتفريط في حق دعوة الناس إلى الإسلام، وضياع الأقاليم الإسلامية، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض فرأى أن بدايتها في الإيمان العميق الذي هو أساس كل خير وسبب لحصول البركات ونزول الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 96].

إن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً، وعن ضعف إيمانهم بقيمه ومثله ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته. وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعيّاً للتفوق[3].

(1)و(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(13).

(3) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد، ص(41).

وقد وصل إلى حقيقة مهمة ألا وهي أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة[1].

لقد كان شغفه بالعلم عظيماً ورحم الله أبا إسحاق الأليبري عندما قال:

فلو قد ذقت من حلواه طعماً ... لآثرت التعلم واجتهدتا
ولم يشغلك عن هوى مطاع ... ولا دنيا بزخرفها فتنتا
ولا ألهاك عنه أنيق روض ... ولا خدر بزينتها كلفتا[2]
فقوت الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمت ولا شربتا

ثالثاً: الرحلة إلى فاس:

وكانت المرحلة الثانية في الطلب، حيث قصد مدينة فاس في المغرب الأقصى ومكث فيها سبع سنوات تقريباً، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء فاس مثل: حمودة بن حاج، حمدون بن عبد الرحمن، والطيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، وأبي بكر الأدريسي، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالي، ومحمد البازعي، والعربي بن أحمد الدرقاوي، وكان العربي الدرقاوي من شيوخ الطريقة الشاذلية، وتبحر ابن السنوسي في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين، وتحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس ونال المشيخة الكبرى بها[3] وأقبل الناس عليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة، وعقله المتنور، وفكره الناضج، وخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد أن لا فائدة ترجى من بقائه بفاس وقرر الارتحال عنا بعد أن تبلورت أصول الدعوة في ذهنه وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، وحالت بينه وبين أتباعه من أن يحقق لهم ما حققه في عهده الأول من رفعة وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمنح المسلمين القوة، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم، كما أن تجربته مع السلطان أكسبته خبرة في التعامل مع الحكام في المستقبل، ولقد لاحظ في فاس تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها وانحرافها عن كتاب ربها وسنة نبيها وكيف بدأ الغزو الأوروبي يؤثر على المدن المغربية، وكيف دخلت البلاد في الصراعات والخلافات الداخلية، ولعل الذي جعله يبقى في المغرب الأقصى مدة سبع سنين متتالية: جامع القرويين الذي وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرت بعضهم، وكان يتشوق

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص(62).
(2) انظر: عشرون قصيدة في الزهد، محمد أحمد، ص(46).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).

إلى لقائهم[1]. ولقد تعمق إحساسه بالخطر الأوروبي وشعر بالأخطار التي كانت تتهدد هذه البلاد من الدول الصليبية، ولقد سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي حاقت بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن، حين احتل الإسبان أجزاء كثيرة منها، كالمرسي الكبير، ووهران، وعنابة وتنس ومدينة الجزائر، ومستغانم (مسقط رأسه) وما زالت أعمالهم الشنيعة وأفعالهم القبيحة يرويها جيل عن جيل من القتل الذريع، والسبي الشنيع، وإهدار كل حرمة، وتحويل المساجد إلى كنائس، كانت تلك الأمور محل تأمل وتفكر من قبل ابن السنوسي[2].

لقد كانت تجربة فاس ثرية بالنسبة لابن السنوسي وقد نقل لنا شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي ما درسه جده في فاس والشيوخ الذين أخذ عنهم فقال: «ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي قرأت عليه «مختصر السعد»، و«جمع الجوامع»، و«السلم»، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون بأسانيدهم السابقة وغيرهم من أماثل علماء فاس. ومنهم العلامة المتقي المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريس حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها والأسطرلابيين وصناعتها والعلوم الأربعة: الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة، والأرثماطقيقي والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الأحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر، والمقابلة وغيرها.. إلخ»[3] ولقد بقي ابن السنوسي مهتمًا بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه.

ويمكن للباحث أن يلاحظ عدة عوامل أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، وظهور خطوط واضحة بعد انتهاء تجربة المغرب الأقصى في فاس، أما العوامل التي أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر فمنها:

1 - ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، وتأثره بتاريخ أجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولذلك صمم على السير في طريق أجداده ولقد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه «الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية».

2 - نشأته في بيئة علمية حببت إليه العلم وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة، فأبوه وعدد من أجداده كانوا من الفقهاء والعلماء.

3 - تأثره بعمته فاطمة التي أشرفت على تربيته في طفولته الأولى وقد بقي ابن السنوسي في كهولته يذكر بعض توجيهاتها له.

---

(1) انظر: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية، للحاجري، ص(278).

(2) المصدر السابق نفسه، ص(279).

(3) انظر: الحركة السنوسية للدجاني، ص(47) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي.

4 - التقاليد والأعراف التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل شخصيته، من ذلك اهتمام الأسرة بتربية علمية عملية فيها الدراسة وفيها الفروسية[1].

5 - تأثر ابن السنوسي مما كان يراه من ظلم الولاة العثمانيين، ومن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدهم.

6 - لمس أطماع الدول الأوروبية في بلاده.

وأما الخطوط العريضة التي اتضحت في شخصيته بعد الإقامة بفاس فمنها:

1 - الصوفية التي تعمق ابن السنوسي في دراستها وساعدته الظروف على ذلك حيث كانت فاس مركزاً نشطاً للطرق الصوفية، وميداناً خصباً لنشاطها، ومعلوم لدى الباحثين أن الشمال الإفريقي على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى أهلها اهتمام كبير بها. وكان من الطبيعي أن يتأثر ابن السنوسي بالنظام المغربي للصوفية. ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى آخر حياته وبقي خطها واضحاً في شخصيته حتى أنه نظم طريقة خاصة عرفت باسمه وكتب كتاباً سماه (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) تحدث فيه عن الطرق الصوفية عامة ووصف الطريقة المثلى التي رضي بها والتي عرفت بنسبتها إليه[2] وكانت تجربته في الصوفية قد أعطته خبرة في التعامل معها فهو لم يقبل الصوفية على إطلاقها، ولم يرفضها بالجملة، بل قيدها بالكتاب والسنة وجعل طريقته مبنية على «متابعة السنة في الأقوال والأحوال والاشتغال بالصلاة على النبي في عموم الأوقات»[3] وقد اهتم بالصوفية اهتماماً كبيراً وظهرت هذه النزعة في منهجه التربوي الذي جعله لأتباعه والذي سنفصله في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

2 - اهتمامه بالدراسة الفقهية، فقد واصل ابن السنوسي في فاس دراسته الفقهية على المذهب المالكي ودرس كتب الفقه على يد شيوخه وقد ذكر في مقدمته «للموطأ» أنه أخذه على طريقتي المغاربة والمشارقة، وذكر اثنين من شيوخه المغاربة وهما محمد بن عامر المعداني، ومحمد بن عبد السلام الناصري، ولقد ظهرت سعة اطلاعه في الفقه المالكي وفقه المذاهب الأخرى في تأليفه، ولقد بقي اهتمامه بالجانب الفقهي حتى آخر حياته، واستمر على المذهب المالكي مع اجتهاده فيه ومخالفته للمالكية في مجموعة من المسائل سنبينها في الصفحات القادمة إن شاء الله، ونلاحظ بأن اهتمام ابن السنوسي بالتصوف والفقه أكسبت حركته طابعاً مميزاً، فهو لم يغلُ في صوفيته ولم يغرق في شطحاتها، كما أنه لم يغل ولم يقف عند الحروف

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(43).
(2) إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، للقطان، ص(109).
(3) انظر: السلسبيل، ص(7).

الفقهية ولم يتجمد في فهم أحكامها، بل زاوج بين دراستها، فأكسب صوفيته طابع السنة ولجمها بحدود الشرع وأعطى فقهه رونقاً وروحانية متألقة بعيدة عن الجمود.

3 - اهتمامه بالحركات الإصلاحية، والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح وتنظيم تكتل شعبي يسند هذه المطالبة ويعززها، فقد زاد هذا الاهتمام بفاس عاصمة الدولة المغربية ومركزها المهم في نشر الوعي، وإشعاع العلم[1].

يقول الدكتور محمد فؤاد شكري: «ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطاً جناحه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طرًا هي كل ما يريد في حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى، ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كل المسلمين وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر لم تثمر ثمرتها، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي سليمان إلى هذه الدعوة وتلمس الخطر من جانبها، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية، قد تعصف بالسلطنة.

وعلى ذلك فقد شددت الحكومة في مراقبة السيد، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس وقرر الارتحال»[2].

رابعاً: الأسباب التي جعلت ابن السنوسي يغادر فاس:

في عام 1235 هـ[3] غادر ابن السنوسي فاس إلى الجزائر وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب جعلته يغادر فاس منها:

1 - أن فتناً كثيرة ثارت في فاس، حيث عمت الفوضى المدينة واضطر أهل الحل والعقد أن يقوموا بضبطها. ثم حدثت فتنة أخرى بسبب نزاع جرى بين القاضي والمفتي رفع أمره للسلطان سليمان فأخر المفتي عن الفتوى، فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله[4]، ثم اضطرمت نار الفتنة حتى انتهت بخروج أهل فاس على السلطان سليمان، وعزموا على بيعة المولى إبراهيم بن يزيد زوج ابنة السلطان، فامتنع أولاً فهددوه قائلين: «إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس ﷺ» فخاف خروج الأمر من بينهم فوافق[5]، وكان من العلماء الذين حضروا البيعة

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(51).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).
(3) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا الكبرى، لصادق المؤيد، ص(66).
(4) انظر: الاستقصاء، للناصري، (8/ 146).
(5) انظر: الاستقصاء للناصري، (8/ 150).

محمد العربي الدرقاوي وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسي، ولم يكن دور ابن السنوسي كبيراً في تلك الأحداث، وكانت الأحوال في فاس تدعو ابن السنوسي للمغادرة وخصوصاً بعد أن استطاع السلطان سليمان استعادتها ودخول شيخه الدرقاوي إلى السجن وتزعزع مركز العلماء والطلاب الذين وقفوا ضد السلطان سليمان، ولا شك أن تلك الأحداث أكسبته خبرات كثيرة وأضافت إلى رصيده تجارب مهمة في حياته المستقبلية[1].

2 - ومن الأسباب التي شجعت ابن السنوسي على مغادرة فاس أنه كان قد أخذ حظّاً وافراً من الدراسة على علمائها وتاقت نفسه للأخذ على علماء جدد، ولذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في أعماق صحراء الجزائر ليتعرف على أشهر الزوايا وليقابل مقدميها حتى بلغ عين مهدي[2]، مكث فيها مدة قصيرة ثم قصد «الأغوات» التي كانت تمتاز بموقعها في جنوب الجزائر بوصفها ملتقى القوافل الآتية من السودان الغربي. وفيها مكث بعض الوقت يلقي دروساً في الفقه والشريعة ثم ارتحل منها إلى مسعد ثم إلى جلفة ثم إلى بوسعده وهو في أثناء رحلته يوعظ ويدرس ويفقه الناس بأمور دينهم[3] وكان لرحلته في جنوب الجزائر أثر في نضوج شخصيته، وفي إعداده لما أخذ نفسه بها، فها هو ذا يشهد ذلك العالم الذي يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذي عهده في مدن الجزائر وفي فاس بالمغرب الأقصى، وها هو ذا يرى ميادين جديدة للدعوة والإصلاح تتفتح له، عالم بدوي بعيد عن صور الحضارة وتعقيداتها، ثم هو في الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية.

وقد كانت تلك البوادي، على سكونها وهدوئها، تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمال التجارية، وكانت الزوايا الدينية التي يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هي أهم مراكز هذه الحركات، أو لعلها المراكز الوحيدة لها، وكانت هذه الزوايا، أو هذه المراكز الثقافية، تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال، وتنتقل بواسطتها السلع في قوافل ما تزال رائحة وغادية.

وفي هذه الزوايا يلتقي رجال القوافل القادمون من الجنوب والعائدون من الشمال، يجلسون إلى شيوخها، ويستروحون بالتلقي عنهم، والانغمار في جوهم، وبتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاءوا منها أو مروا بها وبذلك كانت تلك الزوايا محلاً ثريًّا غنيًّا بالمعلومات[4] وأخبار الشعوب الإسلامية، وفي هذه الزوايا كان نشاط ابن السنوسي في

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(55).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(14).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(57).
(4) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(281، 282).

السودان الغربي يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وقد أيقن أن من عوامل نهوض الأمة القيام بهذا الدور العظيم، فإن الإسلام الذي آمن به ابن السنوسي لا يكتفي بأن يكون في نفسه صالحاً مهتدياً، وإنما يريد منه أن يكون مصلحاً هادياً، متسلحاً بالعلم، ومتحلياً بالحلم، ومتجملاً بالصبر، ومتحرراً من كل القيود التي تشده إلى الأرض، وتقعد به عن كلمة الحق، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر، وفي كل البقاع، لم يبال ابن السنوسي بالتعب والنصب في سبيل رسالته ودعوته بل كان محتسباً الأجر والمثوبة عند الله تعالى وكان يرى أن شرفه منوط بأداء تلك الرسالة المقدسة.

وقد مكث في تلك الديار ما يقارب العامين معلماً ومربياً وداعياً.

ولقد استفاد من هذه التجربة دروساً عظيمة جعلته يركز في مستقبله على دعوة البادية لما رأى فيهم من صفاء الفطرة، وجمال الخلق، وحب التدين وبعدهم عن الفساد وتعقيد الحياة الاجتماعية وسيطرة الأهواء السياسية، كما لاحظ ذلك في المدن التي عاش فيها[1].

3 - ومن الأسباب التي جعلته يغادر فاس رغبته الملحة لحج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبي ﷺ ولذلك غادر بلاد السودان الغربي في رفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق[2].

خامساً: رحلته إلى المشرق:

كان التفكير عند ابن السنوسي للسفر إلى مكة طبيعيّاً، فهو من ناحية لا بد أنه تاقت نفسه إلى بيت الله الحرام وحلم طويلاً بالعيش في الأراضي المقدسة، وقضاء فريضة الحج. كما أنه رأى في الإقامة بمكة فرصة للقاء كبار علماء العالم الإسلامي وقد استقرت في نفسه نصيحة أحد شيوخه إذ قال له: «إن الارتحال المستمر صعب فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا السفر إلى مكة حيث يلتقي جميع علماء المسلمين»[3]. بالإضافة إلى التعرف على الشعوب الإسلامية عن قريب.

وقد ذكر بعض المؤرخين[4] أن ابن السنوسي قبل أن يسافر إلى المشرق رجع إلى بلده مستغانم وفيها قام بإتمام أول زواج له إذ بنى بإحدى بنات عمومته ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه واحتكم للقضاء فحكم له بالأملاك والريع ولأقاربه بالسجن، فتنازل عن الريع وطلب إخلاء سبيلهم فكان له ذلك. ثم أنه بعد ذلك صفى أملاكه وانتقل إلى جهة

(1) دراسات وصور، للحاجري، ص(282).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(283).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(59).
(4) منهم: أحمد الدجاني.

قسطنطينية وجاء عند عرب اسمهم أولاد نايل كانوا في جنوب شرق القسطنطينية فبنى عندهم زاوية ومارس هناك الوعظ والتعليم والإرشاد.

وقرر ابن السنوسي بعد ذلك الارتحال إلى مكة وعرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب في ذلك، فرأى أن يطلقها لعلمه بطول المدة التي يرغب فيها بالانقطاع عن بلده[1] وولد له من زواجه الأول طفل توفي وهو صغير ثم ماتت أمه بعد ذلك[2].

وغادر ابن السنوسي الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه وطلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب وكان ذلك في حكم يوسف القرمانلي الذي كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله ومكث في مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم ونفع العباد ولم يترك بها مسجداً معروفاً إلا ألقى فيه دروساً، وتعلق به آل المنتصر وأصبحوا فيما بعد هم النائبون عنه في طرابلس، وسافر إلى زليطن للوعظ والإرشاد والدعوة واستطاع أن يكسب لدعوته أنصاراً من مصراته وزليطن وطرابلس، ومن أشهر الأسر التي أصبحت من ركائز الدعوة السنوسية فيما بعد: آل المحجوب، وآل الأشهب، وآل الدردني، وآل عمران بن بركة، وآل يوسف، وآل ابن فرج الله وآل المقرحي وآل الثني وآل الغرياني وآل العيساوي وآل الغزالي وآل الهوني وآل الزناتي[3] وساعده على تعلق الناس به خلق كريم، وطلعة بهية، وقبول من رب العالمين.

ونستطيع أن نحدد تاريخ دخول ابن السنوسي طرابلس الغرب من حديث حفيده أحمد الشريف الذي تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة «فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادماً من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والألف في بلده زليطن بغرب طرابلس الغرب»[4].

ومن خلال مروره على طول الساحل الإفريقي تعرف على أحوال مسلمي المغرب وكون فكرة عن أوضاعهم، وأتاحت له تلك الرحلات التعرف على أناس كثيرين وعلى أماكن كثيرة، وقد استفاد من هذا التعارف فيما بعد عند عودته من الحجاز، وكان من طبيعة ابن السنوسي أن يوطد علاقاته بمن يتعرف عليهم ووثق صلته بأشخاص كثيرين، ونجح في كسب قلوب الكثيرين حتى أن رجلاً كعمران بن بركة كان يريد مرافقة ابن السنوسي ولكنه طلب منه التريث والانتظار حتى يرسل له[5].

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(58).
(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 13).
(3) المصدر السابق نفسه، (1/ 15، 16، 17).
(4) انظر: أحمد الشريف، ص(8) نقلاً عن الدجاني، ص(59).
(5) انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص(60).

وواصل ابن السنوسي سيره ودخل برقة وقبل وصوله إلى مدينة إجدابية مر على نجع شيوخ المغاربة الشيخ علي لطيوش فأكرمه وقام بخدمته خير قيام دون سابق معرفة ورافقه إلى إجدابية وجهزه إلى أوجلة، ولم يمر ببنغازي ولا الساحل وتعرف على الشيخ عمر بوحوا الأوجلي وكان في رفقته عبد له، وعبد الله التواتي واستمر في رحلته مع الصحراء بواسطة القوافل حتى وصل القاهرة[1].

سادساً: دخوله القاهرة:

دخل ابن السنوسي مصر وكان الحكم آنذاك لمحمد علي باشا وكان صاحب الجولة والصولة، وكان ذلك في عام 1239 ./ 1824 م وكان محمد علي باشا قد قبض على زمام الأمور في مصر بقوة منذ سنة 1805 م وكانت فرصة لابن السنوسي ليتعرف على تجربة محمد علي باشا عن قرب، وقد لاحظ ابن السنوسي عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا وطريقة الإصلاح وازدادت قناعة ابن السنوسي فيما بعد بخطورة حركة محمد علي باشا التي كانت سياسته تخدم أعداء الإسلام وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية ما زالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم، لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة محمد علي باشا:

1 - تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.

2 - فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نشطت في بذر التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية. وقد فصلت ذلك في كتابي «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط».

3 - إتاحة الفرصة لشركات أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

4 - منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

5 - خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة[2].

وأما حالة الأزهر في ذلك الوقت فقد كان في انحطاط، فالعلوم التي تدرس فيه تراكم

---

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 15 إلى 21).

(2) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي الصلابي، ص(590).

عليها الغبار لقدمها وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد، أما علماء الأزهر فقد عمل محمد علي باشا على إضعاف دورهم ووقعت بينهم المنافسات والضغائن واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم، وعمل محمد علي باشا على تقويض صف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة[1]، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه...، فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره»[2].

وقد أصيبت العلوم الدينية في الأزهر بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل منها:

1 - الاهتمام بالمختصرات:

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة من أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها»[3].

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية، والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً»[4].

2 - الشروح والحواشي والتقريرات:

انتشرت الشروح والحواشي والتقريرات في تلك الفترة في الأزهر الشريف وفي عموم الأمة، فكانت كالأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم، وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم بعيدة عن منهج أهل السنة والجماعة، وكان الأزهر مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام وأصيبت المناهج الإسلامية بالإضافة إلى الجمود بموجة من الجفاف: «...وأصبحت الدراسات

(1) الدولة العثمانية، ص(590).
(2) انظر: عجائب الآثار، (3/ 134).
(3) انظر: واقعنا المعاصر، ص(56).
(4) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (1/ 86).

الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها. . .»[1].

3 - الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في الأزهر في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات، فكانت تعطى جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرس الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة، فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره[2].

فكان ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم، كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهمّاً من عوامل انحدار المستوى التعليمي وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع[3].

4 - رفض فتح باب الاجتهاد:

أصبحت الدعوى لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكانت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المغتربون بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادىء والنظم من أوروبا ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا. «فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته فما يحدث؟.

يحدث أحد الأمرين:

إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها، وإما تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يغطيها، وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر. . الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة»[4].

---

(1) المجتمع الإسلامي، محمد المبارك، ص(210).

(2) الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (2/ 59).

(3) المصدر السابق نفسه (2/ 64).

(4) انظر: واقعنا المعاصر، ص(159).

لقد عانت الأمة من غلق باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطِ هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم: «وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرف الإنسانية من قبل وكان من هذا أن مضى الناس - من غير المسلمين - يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً، وهكذا سار الناس من غير المسلمين قدماً في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون»[1].

5 - التعصب المذهبي:

استمر التعصب المذهبي في الأزهر يضعف المستوى التعليمي، وانحدرت العلوم، وتكبلت العقول والأفهام وفرق بين كلمة المسلمين وأفسد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر، فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[2]. إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام...[3].

وكانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض من أهمها:

1 - أن المسلمين كانوا في حاجة ضرورية إلى العلماء الربانيين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم.

2 - أهمية إحياء مبدأ الشورى على مستوى الحكومات وخطورة الحكام المستبدين الذين يتحكمون في رقاب الأمة باسم الإسلام.

---

(1) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص(144).
(2) انظر: عجائب الآثار، (2/ 242).
(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (2/ 86).

3 - خطورة جمود العلماء وتعصبهم وتقاعسهم في نشر العلوم النافعة بين جميع طبقات الشعب.

4 - أهمية تعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب، وتحبيب عوام المسلمين في الفروسية، والرياضة واستعمال السلاح.

5 - خطورة التسويف وترك العمل الجاد الخلاق.

وقد عمل ابن السنوسي في تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه وظهر بهذه النتيجة التي تقول: أنه في حاجة ملحة إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التي استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبا هو وليد العلم الذي سبب لهم التفوق في مجال الصناعة والرياضة، والفنون الحربية العملية وقد لمس ذلك في المشاريع التي أشرفت عليها فرنسا وبريطانيا في مصر في زمن محمد علي باشا.

والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم المسلمين وعدم اتحادهم: اختلاف المذاهب وكثرة الطرق، والحكم الفردي الاستبدادي، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

وبعد هذه التجربة القصيرة في مصر قرر مواصلة سفره إلى الحجاز بعد أن أقام عاماً واحداً وقد أحدثت زيارته لها آثاراً في نفسه من ذلك أنه ازداد إيماناً بأن دولة الخلافة كانت في طريق الانحلال والاضمحلال، وقد ذكر المؤرخ التركي أحمد حلمي قوله: «وأحدثت هذه الزيارة في نفسه تبدلاً عظيماً وانتقش في ذهنه أن الدولة العثمانية في طريق الانحلال والاضمحلال»[2].

لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها[3].

سابعاً: دخول الحجاز:

دخل ابن السنوسي الحجاز وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها، وساعد على هذا جملة أسباب:

1 - استطاع ابن السنوسي أن يتحصل على أنباء عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين إلى مكة.

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(18).

(2)و(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(65).

2 - أتيحت له فرصة طيبة للاحتكاك بعلماء وفقهاء ومفكري الأمة، وتبادل معهم الآراء والأفكار في كيفية النهوض وإعادة مجد الأمة.

3 - كانت مكة منبراً مهمّاً للدعوة ولذلك اشتغل ابن السنوسي بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية حتى حذق مخاطبة جميع العالم الإسلامي.

4 - أتيحت له دراية بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قرب وعاشر أتباع الدعوة السلفية ومريديها وتتلمذ على علمائها وشيوخها ودرس الحركة السلفية دراسة واعية في مواقفها السياسية واجتهاداتها العملية.

5 - شيوخه في مكة:

أقبل ابن السنوسي في مكة على العلماء يتعرف عليهم ويأخذ عنهم، لقد كان تشوقه للعلم في أخذه يبدو جليّاً في أي مكان حل فيه، وكانت مكة تضم عدداً من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة، ففيهم الصوفي وفيهم المذهبي وفيهم السلفي، وهذا جعله يطلع على معظم الاتجاهات في عصره، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

1 - أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها.

2 - أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار، وقد ذكرهما في رسالته التي كتبها كمقدمة لموطأ مالك باعتبارهما العالمين اللذين يروي الموطأ عنهما من المشارقة.

3 - أحمد الدجاني، حيث أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية.

4 - أحمد بن إدريس من أفضل شيوخ ابن السنوسي وقد تأثر به ابن السنوسي تأثراً عظيماً، وقد أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية، ودرس عليه الحديث والسنة، ولد محمد بن إدريس سنة 1173 هـ بميسورة[1] أصله من المغرب الأقصى وتلقى العلم على أكابر علمائها ثم هاجر إلى مكة واستقر في الحجاز، وأصبح من علماء وقته، ومر هذا العالم بالجزائر وتونس وطرابلس وبنغازي سيراً على الأقدام، واستقر فترة من الزمن في بنغازي، ثم رحل إلى الإسكندرية بحراً، وأثنى على أهل بنغازي وأهل الجبل الأخضر لما رأى عندهم من محبة الخير والصلاح وقال فيهم: «هذه بلادنا فيها تحيا أورادنا، حيها سعيد وميتها شهيد، طوبى لمن أراد الخير لأهلها وويل لمن أراد الشر بأهلها»[2].

(1) انظر: الدجاني، ص(67).

(2) انظر: الفوائد الجلية، ص(24).

ودخل الحجاز واستمر يتنقل بين مكة والمدينة والطائف ما يقارب ثلاثين سنة واستفاد منه خلق كثير من أصقاع العالم الإسلامي، من مصر، والسودان، والهند، واليمن، وبلاد المغرب وغيرهم وكان دخول الحجاز عام 1213 هـ[1].

وعندما دخل سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز عام 1221 هـ لم يتعرضوا للشيخ أحمد بن إدريس بأذى وكذلك أتباعه، وقد وصف ابن إدريس بأنه ذو ميول سلفية.

قضى ابن السنوسي سنوات عديدة مع أستاذه ابن إدريس إلى أن اضطر الأخير إلى الارتحال من الحجاز: «وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن إدريس من عنف السلطات الحكومية، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه مع ما اعتاد عليه هؤلاء من أزمان طويلة حتى صاروا يعدونه مبتدعاً ثم انقلب نقدهم اضطهاداً اضطر بسببه السيد ابن إدريس لمغادرة مكة إلى صبيا العسير» وكانت (صبيا العسير) ضمن أملاك الدولة السعودية ومبادىء الدعوة السلفية متمكنة في نفوس أهلها وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية في مكة وأتباعها.

إن ارتحال أحمد بن إدريس إلى صبيا دليل على حسن الصلة التي بينه وبين أتباع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2] وسافر ابن السنوسي مع أستاذه إلى صبيا وأقام معه هناك حتى وفاته[3].

إن تتلمذ ابن السنوسي على أحمد بن إدريس أفاده كثيراً وقد توثقت العلاقة بين ابن السنوسي وشيخه ابن إدريس وأصبحت علاقة قوية جدّاً يوضحها أحمد الشريف في كتابه «الأنوار القدسية» ما نقله عن ابن إدريس: (. . . أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله، إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فإنه النائب عنا قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مراراً أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم نر فيه المصلحة إلا هو. . . ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله فقد قام امتثالاً لأمره فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه)[4].

لقد أخذ ابن السنوسي من شيخه الإذن لإعطاء العهود وتلقين الذكر فأذن له وأمره (أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله)[5] ولم يلبث ابن السنوسي طويلاً بعد ذلك حتى بنى

(1) الفوائد الجلية، ص(21 إلى 23).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(101).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(21).
(4) انظر: الأنوار القدسية مخطوطة، ص(68).
(5) المصدر السابق نفسه.

أول زاوية له في الحجاز وباشر الدعوة في حياة شيخه ابن إدريس، وشرع ابن السنوسي في إلقاء الدروس في مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم، ويعتبر المؤرخون زاوية أبي قيس أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة واختياره لنظام الزوايا كوسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره، ومكث في الحجاز في رحلته الأولى خمسة عشر سنة استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع والمريدين أعداداً كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه واقتفاء السلف الصالح في إرشاده وتعليمه، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه، وزاد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته، وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله، وكان ابن السنوسي على اتصال مستمر بأبناء ابن إدريس في صبيا وهي تابعة للحركة السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهكذا كثرت الصعاب والعوائق في طريقه وفكر في الانتقال بالدعوة إلى مكان آخر، ولا شك أن إقامته الطويلة في مكة أثرت على جوانب كثيرة في تفكيره ووجهت اتجاهه الإصلاحي الوجهة التي سار عليها، فهناك في مكة أخذ كفايته على العلماء، ودرس معظم الاتجاهات الفكرية، والتقى بأستاذه ابن إدريس وكذلك بوفود الحجيج القادمين من مدن وقرى العالم الإسلامي وتعرّف على أحوالهم، وزاد فهماً للداء الذي ينخر فيهم، وكانت هذه الجموع من الحجيج تربة خصبة استطاع أن يبذر فيها دعوته واختار منهم من يصلح لمعاونته[1].

ولم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده وأشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام، وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: «إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع راية الجهاد» فكان هذا سبباً في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه، ومعلوم لدى الباحثين جهاد عبد القادر محيي الدين الجزائري في الجزائر[2].

زواجه الثاني:

وفي فترة إقامته في الحجاز تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية وقد

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(72).

(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 44).

قام بتزويجه أستاذه ابن إدريس الذي رآه يعيش عزباً منذ طلاقه لزوجته الأولى، وكانت السيدة خديجة تتصف بالتقوى والصلاح. وقد قامت بدورها نحو زوجها فهيأت أسباب الراحة له ورافقته في رحلاته، ورضيت بأسلوب حياته الصعب الذي يتصف بالانتقال المستمر والعمل المرهق. وقد توفيت فيما بعد بالجغبوب بعد وفاة ابن السنوسي بحوالي عشرين سنة عام 1269هـ[1].

ثامناً: رحلته من الحجاز إلى المغرب:

تضافرت عدة أسباب دفعت ابن السنوسي لمغادرة مكة منها: توفي أستاذه أحمد بن إدريس، عداوة شيوخ مكة وعلمائها لما كان يطرحه ابن السنوسي، خوف الحكومة العثمانية من علاقته بأبناء أحمد بن إدريس في عسير وهي أرض تابعة لأتباع الحركة الوهابية، دعوة مريديه من أهالي المغرب لزيارة بلادهم، وأضاف عبد القادر ابن علي رغبة ابن السنوسي للجهاد في بلاده ضد الفرنسيين؛ فعقد النية وصمم على السفر للاشتراك في جهاد فرنسا في الجزائر، والتحق بركبه عدد كثير من أتباعه وإخوانه، وعين الشيخ عبد الله التواتي على زاوية أبي قيس بمكة للقيام بشئون الأتباع وكان سفره ذاك في آخر عام 1255 هـ في 26 ذي الحجة حسبما هو مذكور في مذكرة مرافقه الشيخ محمد بن صادق البكري، ثم سافر إلى مصر من مكة ومعه عدد كبير من الإخوان وذلك آخر عام 1255 هـ ودخلها أول عام 1256 هـ وزار الجامع الأزهر وألقى دروساً نافعة ووقف أحد كبار مشايخ الأزهر وقال: «أنصتوا أيها العلماء لقد حل بين أظهركم عالم الأمة المحمدية ونبراس الشريعة المطهرة وشمس سماء المعارف الإلهية:

إذا صلصل الباز فلا ديك صارخ ولا فاخت في أيكة يترنم

ألا وهو الشيخ الكامل سيدي محمد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي، فارتج الجامع بعلمائه، ولم يمكث الشيخ بمصر غير مدة قليلة ثم سافر»[2].

وتعرض ابن السنوسي لهجوم الشيخ عليش المالكي بسبب دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد، وقد ذكر محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية» أن ابن السنوسي تعرض للقتل: «ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(72).
(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص(150).

خرق حرمة الدين وتبع سبيل غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسي للقاهرة»[1].

وقد تعرض الشيخ ابن السنوسي في مصر لمرض اضطر على أثره أن لا يأكل شيئاً من الزاد سوى مقدار بسيط من الحليب صباحاً ومثله مساءً فقط وكان الذي يقدم له الحليب رجل تركي، فوضع له سمّاً في الحليب فلما شرب منه سقطت أسنانه في الإناء واشتد به الألم حتى يئس منه جميع الإخوان، وأخيراً منَّ الله عليه بالشفاء بعد معالجات، إلا أنه سبب له مضاعفات من جسمه تخرج على جلده جبة (أي قشرة تشبه جبة الحنش) وصارت له عادة يسلخها رأس كل عام وقت أخذه لذلك (الحليب)، ولما تحسنت صحته أرسل للشيخ عبد الله التواتي في مكة ولما حضر إليه أرسله إلى قابس بتونس يرافقه بعض الإخوان ومعهم زوجته الحبشية وأمر بعض الإخوان أن يواصل رحلته إلى الجزائر[2].

وكان ابن السنوسي في سفره ذلك قبل ذهابه إلى مصر قد قصد المدينة المنورة للوداع ثم نزل ببدر وكان يقصر ويجمع في الصلاة، وإن حصلت له إقامة ببلد في طريقه استمر على ذلك يقصر ويجمع إلى تسعة عشر يوماً، تارة يجمع جمع تقديم وتارة جمع تأخير، وهو في عمله هذا يخالف المالكية ويتبع الأحاديث الواردة في قصر الصلاة وجمعها بعد أن اعتقد صحتها[3].

وبعد الشفاء من مرضه اجتهد في الدعوة إلى الله وتعليم الناس وإرشادهم وأقام مداداً متفاوتة في عدد من المدن والقرى فترك في كل منها ركائز وأنصاراً، وقد تميز أسلوبه الدعوي بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلي[4].

وواصل ابن السنوسي رحلته برّاً من سيوه إلى جالوا ثم أوجلة وكان يرافقه الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدي الفيلالي، ثم توجه إلى برقة ونزل على نجع عائلة اللواطي من العواقير، ففرحوا وقاموا بإكرامه ورفقائه ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة فنزل على الشيخ علي لطيوش فأكرم ابن السنوسي ورافقه إلى محل يسمى الهيشة ما بين سرت ومصراته، وهناك قابله آل المنتصر ومعهم أعيان مصراته فدخل معهم إليها وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليتن ومنها إلى طرابلس، ونزل في بيت أحمد المنتصر وترك عنده بعض الإخوان وولي سفره

(1) انظر: الإسلام في القرن العشرين، للعقاد، ص(130).
(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 47 إلى 50).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(75).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(76).

إلى زوارة ودخل حدود تونس[1] وشعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود، وجاءته الأخبار بذلك وتقرر أن لا يواصل شخصياً سيره، وندب محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري[2] وعاد إلى طرابلس، وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع، وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء، والشيخ أبو خريص الكزة[3]، وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دوفربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة في الجزائر؛ فدوفربيه يقول: «إن السنوسية هي المسئولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة 1848 - 1861 وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام 1881 م. . . . إلخ».

وقد بين المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل تمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمرها وهو في ميدان الجهاد[4].

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على خطاب أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس[5] التركي (غدامس في ليبيا) وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عدداً من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة 1268 هـ. وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ. ومن بين ما جاء فيه: (. . . وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي ﷺ ونفعنا وإياكم به آمين. وصار عربان وأرقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة. . . وبعث لنا الرومي

(1) و(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 50).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(78).
(4) انظر: الفوائد الجلية (1/ 51).
(5) قريبة من حدود تونس والجزائر.

دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل... تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأخبية والحمد لله على ذلك....)[1].

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام 1962 م.

تاسعاً: ابن السنوسي في طرابلس:

عاد ابن السنوسي من قابس إلى طرابلس مع صحبة مجموعة من الإخوان في عام 1257 - ونزل ضيفاً عزيزاً على عائلة المنتصر، وتخوف الوالي العثماني من ابن السنوسي واستطاع عميد عائلة المنتصر أن يقنع الوالي علي عشقر بأن ابن السنوسي من المخلصين والمحبين للدولة والخلافة، وعمل على جمع الوالي العثماني بابن السنوسي وقد تأثر الوالي بورعه وقد فصّل محمد الطيب الأشهب في هذه النقطة فقال: «فبعد أن وصل قابس عاد إلى طرابلس وذلك في أوائل 1257 هـ وكان حاكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته أنباء مشوهة عن دعوة السنوسي وحركته التي قيل على لسان رواة الحاكم العثماني أنها ترمي إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية وكان راوية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله.

فأمر علي عشقر بالقبض على رفاق الإمام السنوسي الموجودين بمنزل الحاج أحمد باشا المنتصر ريثما يتسنى القبض على شخص الإمام. وتقدم المنتصر بوساطته في أن يبقى الإخوان السنوسيون في منزله وقدم بذلك ضماناً شخصياً متعهداً أن يخبر الحكومة عن الإمام السنوسي حينما يعود. وشاء الله أن يصل الإمام فجأة وما كان يعلم عما حدث فلما علم أصر على رؤية الوالي، وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته فاعتذر له وانضم إليه اثنان في المجلس المقرحي والقزيري...»[2]. وكان العلامة المقرحي من طليعة علماء طرابلس وقد كلفه علي عشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الإمام ابن السنوسي فما كاد يستمع إليه حتى تأثر به وأصبح من أتباعه ومريديه.

---

(1) انظر: نص الرسالة الكامل عن سجل رقم (196/ 3/ 501)، دار المحفوظات. طرابلس.

(2) انظر: السنوسي الكبير، للأشهب، ص(104).

وكان رأي العلماء الذين ناظروا ابن السنوسي بأنه نعمة من الله ساقها إليهم وفرح الباشا بذلك واعتذر لابن السنوسي، وقال له: هذه بلادك والأهل أهلك، فانفعهم بقدر استطاعتك ونحن في الحاجة الشديدة لأمثالك، فأقام ابن السنوسي في طرابلس مدة يعلّم الناس ويذكّرهم ويبصّرهم بأمور دينهم، وتعلق الناس به، وسارت إليه الركبان[1].

ويذكر بعض المؤرخين أن الوالي العثماني علي عشقر أخذ عن ابن السنوسي طريقته وصار من أتباعه، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد التي استمرت سبع سنوات مضت قريباً[2] وأن الأحداث في تلك السنة كانت على أشدها حيث كانت الثورة مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومة المحمودي، وسيف النصر في سرت ضد الدولة العثمانية واستطاع غومة المحمودي وسيف النصر أن يستقل كل منهما بمنطقته لفترة من الزمن مقابل دفع مبلغ معين للولاة، ثم تفاقم أمرهما، فعمل الوالي العثماني على الخلاص منهما ونجح في القبض عليهما، فأما غومة فنفاه من طرابلس، وأما عبد الجليل سيف النصر فقطع رأسه[3].

ولذلك حرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في ليبيا وخصوصاً بعد أن ظهر منه حرصه على الأمن واجتماع الكلمة، ونبذه للتنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم[4] وقد كانت نظرة الوالي العثماني تدل على بعده السياسي، وحرصه على الأمن واستقرار البلاد، وحبه للدعوة إلى الله تعالى.

عاشراً: ابن السنوسي في برقة:

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت وبرفقته أمراء من آل المنتصر بأمر عميد الأسرة، وأعيان من مصراته، ودخل سرت ووجد هناك كوكبة من الفرسان في انتظاره، هم بعض أعيان وشيوخ، ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازي فرحبوا بسيادته ورافقوه في رحلته، ومر في طريقه بالكثير من القبائل وبعد وصوله إلى بنغازي تنافست بيوتات بنغازي البارزة في إكرامه، كعائلة الكيخية، وآل شتوان، وآل منينة وأقام في بنغازي شهر رمضان كاملاً وبعد العيد جاء رجلان من قبيلة العواقير لشراء الكفن للشيخ أبي شنيف الكزة

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 30).
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(30).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(80).
(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(30).

زعيم قبيلة العواقير عموماً الذي مرض مرضاً تحقق أقاربه منه بالموت، ولما وصل الرجلان إلى بنغازي دخلوا على الرجل الصالح علي خريبيش وكانت لهم به معرفة، وأخبروه بمرض الشيخ أبو شنيف وطلبوا منه الدعاء له بالشفاء، فقال لهم: هنا رجل صالح عالم نزوره أنا وأنتم ونطلب منه الدعاء له بالشفاء، فلما التقوا بابن السنوسي أظهر لهم عدم الانزعاج وأطال لهم في المجلس وهم كأنهم على نار فألحوا في طلب الإذن لهم بالخروج فقال لهم: ربما هذا المريض يدفن بعض الحاضرين ثم قال لهم: نخرج معكم إليه، ففرحوا وفعلاً ترك بعض إخوانه وثقل أثاثه وخرج معهم مخفاً وكان الشيخ أبي شنيف نازلاً بأهله بمكان يسمى الظاهر يبعد عن بنغازي بمسافة يوم كامل فلما وصل إلى الشيخ أبي شنيف وكان في حالة غيبوبة ومرضه في بطنه وهي منتفخة فوقف عليه ووضع يده الشريفة على بطنه فانتفشت كأنها قربة منفوخة وأفاق في الحال وتكلم، فعلت أصوات النساء بالزغاريد وسرت القبيلة بشفاء عميدها العظيم[1].

لا شك أن ابن السنوسي قد أخلص في دعوة الله لشفاء هذا المريض، وقرأ عليه بعض الأدعية النبوية المباركة وربما سورة الفاتحة وقرأ عليه القرآن الكريم وهذا جائز في الشرع، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر؛ فمروا بحي من أحياء العرب؛ فاستضافوهم فقال لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب؛ فقال رجل منهم: نعم. فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فلما علم النبي ﷺ بذلك تبسم وقال: **«وما أدراك أنها رقية؟»** ثم قال: **«خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»**[2] وقد علّم رسول الله ﷺ الأمة كيف يفعلون مع مرضاهم، فكان ﷺ إذا أتى المريض يدعو له ويقول: **«أذهب الباس، رب الناس واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً»**[3].

لقد كانت حادثة شفاء زعيم قبيلة العواقير على يدي ابن السنوسي مدخلاً عظيماً للدعوة إلى الله في قبائل برقة، واعتبره المؤرخ عبد القادر بن علي أول فتح لابن السنوسي في برقة والجبل الأخضر وأقام في نواجع العواقير ما يقرب من الشهر واجتمعت على سيادته الناس من أنحاء برقة لزيارته وطلب الدعاء منه[4]، وقد انتشرت بين الناس كرامات نسبت لابن السنوسي، فمنها ما ذكره الحشائشي أن ابن السنوسي عندما قدم من المغرب إلى الحجاز على طريق قابس من أعمال تونس نزل بحي من أحياء العرب ولم يظهر الشيخ أنه من العلماء وليس معه إلا أربعة أنفار، فأكرم نزل رب الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة، فلما أراد المسير من عنده أهداه

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 53).
(2) انظر: مسلم، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية (4/ 1727) رقم (2201).
(3) انظر: مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض (1/ 1722) رقم (2191).
(4) انظر: الفوائد الجلية (1/ 53).

رب المكان بغلته ليركبها بالطريق، فأخذها الشيخ من عنده ولما ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به فسقط من أعلاها وانكسرت ذراعه الأيمن من حينه، ورجع إلى رب الحي المذكور فتلقاه مذعوراً وفي الحال أحضر له أناساً عالمين بجبر الكسر، فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار ثم تجعل على محل الألم ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه؛ فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله، ومن هنا أخذ الشيخ في الاشتهار[1].

إن المفتاح الكبير لقبائل برقة هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلماء الأمة يثبتون الكرامات للصالحين: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك. وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ...»[2].

«ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتي مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة»[3] ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء[4].

إن ابن السنوسي صحت معرفته بالله ورسوله ودينه، وصدقت متابعته للشرع ظاهراً وباطناً، ونحسبه كذلك لا نزكي على الله أحداً، ولذلك فتح الله عليه بما لم يفتح على غيره، من إلهامات صحيحة، وفراسات صائبة، وأحوال صادقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة النساء، الآيات 66 - 68] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة»[5].

وقال ابن عثمان النيسابوري: «من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن

---

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص(145).
(2) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (11/ 274).
(3) المصدر السابق نفسه (11/ 283).
(4) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (1/ 508).
(5) مجموع فتاوى ابن تيمية (10/ 473، 474).

أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1] [النور: 54].

وقال الكرماني: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطىء له فراسة»[2] بعد شهر من بقائه في نجع العواقير واصل سيره متوغلاً في برقة الحمراء ومنها الجبل الأخضر وبصحبته جمع غفير من الإخوان ومشايخ مختلف القبائل من الحاربي والعواقير حتى وصل إلى مكان يسمى ماسة، وتقدم من ماسة إلى محل يسمى دنقلة حيث مكان الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري ﷺ[3] وقد شرع الإخوان السنوسيون في تأسيسها قبل مجيء ابن السنوسي وذلك بتوجيه منه، وهي أول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز ولها مقام كبير عند السنوسية ويطلق عليها أم الزوايا، وقد بنيت زاوية البيضاء خارج البلدة وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها، ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي اختار لها موقعاً استراتيجياً جيداً يتميز بسهولة الدفاع عنه وصعوبة الوصول إليه. كما يلاحظ أيضاً أنه أحسن بناءها.

ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي، كما أنها تتابع بانتظام مما يدل على أن ابن السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب لأنه كان يتوقع هجوم الأعداء عليها[4]. ولا ننسى زعيم البراعصة الشيخ أبو بكر بوحدوث الذي وقف بجاهه وماله ونفسه مع الحركة السنوسية، وكان من تواضعه يشارك العمال في كافة أعمالهم بنفسه فضلاً عن أتباعه وكان بجلالة قدره ممن يخلط الطين للبنائين الذين يبنون المسجد والزاوية البيضاء رغبة في الثواب[5].

وشرع ابن السنوسي من الزاوية البيضاء يعلم الناس ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها تبركاً به وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان ﷺ يتوجه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر[6].

---

(1) انظر: الجامع لأخلاق الراوي، باب أدب الطلب (1/ 80).
(2) انظر: قواعد التحديث للقاسمي، ص(149).
(3) انظر: الفوائد الجلية (1/ 54).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(83).
(5) انظر: الفوائد الجلية (1/ 56).
(6) المصدر السابق نفسه (1/ 58).

وظل في نواحي برقة والجبل الأخضر يزور القبائل، ويؤسس الزوايا حتى تم تأسيس ما ينوف عن عشرين زاوية، كما كان طيلة هذه السنوات يتردد ما بين القبائل ويصلح ما بينها ويزيل ما تأصل بينهم من الأحقاد والمشاجرات التي طال أمدها رغم ضررها، وكان يعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى أخوة الإسلام ورابطة الإيمان، ويحثهم على التعاون على البر والتقوى، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة مثل: التبرج والاختلاط، وقتل النفس بأتفه الأسباب وعدم الانقياد لأوامر الدين والدولة، وكان يأخذ منهم العهود والمواثيق على أنهم ينقادون لأوامر مشايخ الزوايا ويرجعون إليهم في مختلف قضاياهم وحل مشاكلهم، ويدخلون أبناءهم في الزوايا ليتعلموا القرآن وأمور دينهم، كما كان يأخذ عليهم عهوداً باحترام الزوايا ومشائخها والإخوان وأن يبذلوا جهودهم لمساعدة الزوايا والإخوان فيما هو ضروري لبقائها عامرة وكل قبيلة تطالب إقامة زاوية لها تقيمها لهم بالشروط المتقدمة[1].

والزوايا التي تم تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة في الجبل الأخضر وبرقة هي (البيضاء، شحات، بنغازي، درنة، مارة، أم الرزم، العرقوب، توكرة، طلميثة، الطيلمون، الفائدية، المخيلي، القصور، المرج، أم ركبه في (فزان)، مرزق، زويلة، هون، سوكنه (في طرابلس) مزدة، طبقة الرجبان، تونين، مصراتة، زليتن، زلة، وفي تونس زوايا الجريد).

وعلى الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادنا وغيرها أن تراجع حساباتها وتتفقد الأماكن التي كانت منارات للعلم والتربية والدعوة، وتعمل على إحياء ما اندرس منها على منهج صحيح وسليم وقويم من عقيدة السلف، ومنهج أهل السنة والجماعة، مع الاستفادة من خبرات الحركات المعاصرة وتجديد الوسائل، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ويهدينا سواء السبيل. والقصد من ذلك العمل على إحياء الإسلام في البوادي والأرياف والقبائل ولا نحصره في المدن الكبرى.

زواجه الثالث:

في أواخر عام 1258 هـ جمع ابن السنوسي إخوانه في ليلة من الليالي وقال لهم: تعلمون إخواني أنني تقدمت بي السن (وكان سنه آنذاك سبعة وخمسون سنة) وضعف جسمي وقوتي بعد شربي للسم ولم يبق لي مأرب في النساء غير أني رأيت سيدنا محمد ﷺ في منامي وقال لي: خذ إحدى بنات هذا الرجل أي السيد أحمد ابن فرج الله تأتيك بولدين يكونان من المهاجرين والأنصار، وإنني امتثالاً لأمره ﷺ أريد أن أخطب من أخينا السيد أحمد إحدى بناته، ثم عقد ﷺ على فاطمة وهي الوسطى من البنات[2].

(1) انظر: الفوائد الجلية (1/ 59).
(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 58).

إن الرؤيا الصالحة في المنام بشرى تزف لعباده الصالحين، وأمر رسول الله ﷺ في المنام إذا لم يخالف الشريعة لا يوجد ما يمنع من تنفيذه وكانت بشرى صادقة وقد وقعت كما رآها ابن السنوسي.

إن أمر الرؤيا في حياة ابن السنوسي واضح وجلي، ويستأنس بها في رحلاته وأعماله وبالنسبة لرؤية رسول الله ﷺ في المنام فلا خلاف بين أهل العلم فيها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي»**[1] وفي رواية عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ **«من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»**[2] وفي رواية عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«من رآني فقد رأى الحق»**[3].

(1) انظر: البخاري، فتح الباري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ، رقم (6993).
(2) المصدر السابق نفسه، رقم (6994).
(3) المصدر السابق نفسه، رقم (6995).

obeikandl.com

المبحث الثاني

أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته

تمهيد:

إن إقليم برقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة، طرابلس، فزان)، بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (700 ألف كيلو متر مربع) وإن لم يكن أكثرها سكاناً، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقاً وحدود طرابلس غرباً، وكان يعرف عند الرومان بإقليم (سيرينة) التي سماها العرب (قيرين) أو (قرناه) ثم أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بإقليم برقة[1].

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلي يضيق في الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل إلى الساحل، ولكن في جناحي برقة: في البطانان شرقاً، وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً، يتسع هذا السهل الساحلي بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء[2]، وإلى جانب هذا السهل الساحلي يوجد الجبل الأخضر الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف متر وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع الساحل ارتفاعاً مباشراً ولكنه ينحدر تدريجيّاً نحو الصحراء في الجنوب، وبه الأراضي الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التي ترويها مياه الأمطار الغزيرة.

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التي تكون معظم مساحة الإقليم وهذه الصحراء مستوية وإن وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهي مستوية أيضاً، وفي صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلىء بالماء فترة ما وبعضها يكون جافّاً طول السنة[3]، كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة، وجالو، وأوجلة[4].

وسكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي اتضحت صورته منذ الفتح الإسلامي، ثم عندما زحفت قبائل بني هلال، وبني سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - أصبحت هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسين: القبائل السعدية،

---

(1) انظر: النجوم الزاهرة (8/ 282).

(2) انظر: د. نقولا زيادة: ليبيا، ص(1).

(3) انظر: الجغرافيا السياسية لإفريقيا، د. فيليب رفلة، ص(338).

(4) انظر: في تاريخ العرب الحديث، د. رأفت الشيخ، ص(240).

وقبائل المرابطين ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بني سليم، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التي جاءت مع الفتح الإسلامي والتي اختلطت مع سكان البلاد وعربتهم، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف في النسب إلى بيت الرسول ﷺ ومن أهم القبائل السعدية: العبيدات، وعائلة فايد، والحاسة والبراعصة، والدرسة، والعبيد، وعرفة، والعواقير، والمغاربة، وأهم قبائل المرابطين: المنفة، والقطعان، والحوطة، والفواخر والزوية[1].

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلي العربي من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل في أرجائها، وأفراد كل قبيلة متضامنون في أداء ما عليهم من واجبات وفي الحصول على ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العامة على أفرادها. ومنذ أيام الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، بحيث تكون القبيلة أساساً لتطبيق النظام ومساعدة الحكام[2].

كانت القبائل في برقة تعيش حياة غير مستقرة، فيما عدا الواحات، وكثيراً ما تتقاتل من أجل المراعي أو مياه الآبار[3].

وقد توفرت في برقة ظروف ملائمة لظهور الحركة السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة منها:

1 - أن برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة بالصحاري والفيافي التي تحيط بها.

2 - تتألف برقة من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة.

3 - يقوم النظام القبلي في برقة على (عصبيات) دموية مشتركة وتقاليد وأعراف متشابهة.

4 - لا تزال المناطق الريفية بعيدة عن سيطرة المدن.

5 - لم يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية[4].

إن النظام القبلي في برقة كان حلقة مفقودة في خطة ابن السنوسي ووجد ضالته في ذلك المجتمع، فقد أوجد النظام القبلي القواعد السياسية التي أقيمت عليها الحركة السنوسية، إن النظام القبلي في برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسات متطورة لها مصالحها الاقتصادية، وتركيبتها الاجتماعية، ويرجع نجاح الحركة السنوسية في برقة في بعض جوانبه إلى التكيف مع هذا

(1) انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص(240).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(240).
(3) المصدر السابق نفسه، ص(241).
(4) انظر: المجتمع الليبي، د. عبد الجليل الطاهر، ص(244).

التركيب القبلي المعقد[1]، إن الحركة السنوسية وجدت بنية اقتصادية، وتركيبة اجتماعية استطاعت أن تتفاعل معها الحركة، لقد استطاع ابن السنوسي أن يشيد على البناء القبلي تنظيماً إرشادياً ووعظياً، ولم يكن من الممكن إقامة مجتمع جديد بدون ذلك البناء القبلي[2].

لقد وجد ابن السنوسي ضالته في قبائل برقة، ووجدت القبائل ضالتها المنشودة في دعوة ابن السنوسي.

كانت قبائل برقة قبل مجيء ابن السنوسي تتخبط في دياجير الظلام، حيث استفحل الجهل في تلك القبائل رغم اعتناقها الإسلام الذي تنتسب إليه اسمياً وبالفطرة، ولم يبق لها من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه وإليك بعض الصور من هذا الانحراف الخطير:

1 - اتخذت بعض القبائل مواقع من برقة لتأدية فريضة الحج بدلاً من الحج إلى بيت الله الحرام[3].

2 - كانت بعض القبائل لا ترى ضرورة صيام رمضان فتكلف ثلاثين شاباً قوياً، فيصومون يوماً واحداً، ويرون بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة وأرباب الأعمال من أهل القبيلة.

3 - كثر الأدعياء والدجالون الجهلة الذين يدعون لأنفسهم مقام الولاية والصلاح دون معرفة أصول الدين وعلى غير علم به، وكان حقهم في هذا المقام هو بالتوارث خصوصاً إذا ما كان بين هؤلاء الأدعياء من له صلة بنسب شريف، ولهؤلاء مكانتهم في نظر العامة التي اعتقدت أنهم يتصرفون في ملكوت الله أحياء وأمواتاً، وأنهم في حالة الغضب أو الرضى يشقون ويسعدون.

4 - لقد غابت كثير من شعائر الدين بين تلك القبائل[4].

5 - كانت القبائل يكثر بها الجهل، قلما تجد من يعرف القراءة والكتابة، فكل من يصل إليه كتاب يذهب به إلى أقرب المدينتين إليه؛ بنغازي أو درنة لقراءته.

6 - كان القوي منهم لا يتورع في الحصول على ما تصبو إليه نفسه بالقوة حتى أن الضعيف لا يرى له حقاً.

---

(1) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، د. علي حميدة، ص(116).
(2) انظر: المجتمع الليبي، ص(253).
(3) انظر: السنوسي الكبير، محمد الطيب، ص(116).
(4) انظر: المصدر نفسه.

7 - كانوا لا يرون في شن الغارات والغزو والقتال عيباً، فكل قبيلة من القبائل العربية تعمل ما يعزز مركزها ويقوي شوكتها في نظر القبيلة الأخرى.

8 - كانت الحروب تندلع بين القبائل بأقل الأسباب وأتفهها، فتارة من أجل شخص حلب ناقة غيره بدون استئذانه، وتارة من أجل شخص ضاف آخر فلم يكرم وفادته، ومرة من أجل بهيمة أكلت زرعاً وحيناً من أجل رجل تزوج امرأة ولها ابن عم لا يريد زواجها منه... إلخ فبمثل هذه الأسباب كانت تقع الحروب الكثيرة التي جرت القبائل إلى هاوية الخراب والدمار، ولا يمر وقت طويل بدون حرب، ومن أهم الحروب التي وقعت ببرقة قبل مجيء ابن السنوسي حرب العبيدات وأولاد علي، وحرب قبائل الجبارنة مع الفوائد، ثم الجبارنة مع الحرابي المعروف بحرب (بياض)، وحرب المغاربة مع الزواوات، إلى غير ذلك من الحروب الكثيرة[1].

ولكن الدعوة السنوسية استطاعت أن تزكي النفوس، وتقوي الإيمان، وتنشر العلم، وتزيل الجهل، وتحارب الظلم، وتحبب العدل إلى نفوس تلك القبائل، وبعد فترة من الزمن أصبح من تلك القبائل علماء عاملون يدعون إلى الخير وبه يعدلون، ولقد استطاع الشاعر أبو سيف مقرب حدوث البرعصي أن يصف الحالة التي كان عليها قومه وكيف تحولوا عنها نتيجة للدعوة السنوسية:

وكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديا
وكم جهول أسود اللون خلقة ... كساه لبوس العلم أبيض صافيا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه ... يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه في مهوى الضلالة هاوياً ... فأصبح نجماً بالهداية عاليا
فتاهوا به فخراً على كل حاضر ... ومن جاور الأعلى يحوز المعاليا[2]

وهذه قصيدة الشاعر الأديب الأستاذ أحمد شنيب المعروفة بـ(عقيدة وخلود) تصف حال المجتمع الليبي فتقول:

أرض الجدود وقد جفاك بنوك ... حتى استحل دم العروبة فيكِ
ما خطبهم باعوا الهداية بالدجى ... وتفرقوا، وبجهلهم خذلوك
وتشتتوا في الأرض لا من غاية ... غير التناحر والدم المسفوك
شعب تفرق شمله وقبائل ... لم يدركوا (التعارفوا) فرموك

(1) انظر: برقة بين الأمس واليوم، للأشهب، ص(162، 163).
(2) انظر السنوسي الكبير، ص(20).

يا وحيهم ما جاء عمرو غازياً ... إلا لنشر الحق في ناديك
ودم الصحابة لم يرق عفواً ولم ... يستشهد الأبرار حين غزوك
وهبوا حياتهم لنصرة ربهم ... والدين والقرآن كي يحموك
عادت عصور الجاهلية بينهم ... وتصدع الإسلام بين يديك
واحسرتاه على الحنفية كم غدت ... تبكي كرامة مجدها المهتوك
لا الدين أصبح يهتدي بجلاله ... لا السنة العصماء تسعد فيك
والمسلمون أذلة ليست لهم ... من دينهم غير اسمه يأسوك
ساءت موازين الحياة وبالهوى ... ساسوا الأمور، وخسفهم ساموك
وتطلع الغرب الغريب توثباً ... وأعد عدته لكي يرويك
أبناء روما في الشمال تحفزوا ... وبنوا فرنسا في الجنوب قلوك
الله يا أرض الجدود ومن سوى ... رب السماء من الأذى ينجيك
إن الذي بعث النبي محمداً ... للتائهين أعز من يهديك
يا ابن السنوسي الكبير تحية ... من أمة في عصرها المنهوك
جاءت إليك تحط كل رجائها ... وتطوف حول ركابك المبروك
أو لست سيد عصره وإمامها ... والقائد الأعلى بغير شريك؟
في لينه حزم، وفي إيمانه ... كل اليقين بنصر خير مليك
وغناه في قصد، وفاقته على ... أسمى التجمل في أعف سلوك
يا أرض قرى خاطراً وتقدمي ... بتحية الإكبار من هاديك
حملت آثاماً فجاء مطهراً ... أكرم به من مؤمن يحبوك
وغدوت أشتاتاً فأقبل هادياً ... ومبشراً، وإلى العلا يدعوك
ويلم شعث المسلمين ويبتني ... ركناً يقام وأمة تفديك
ويعيد للدين القويم بهاءه ... ويقيل عثرة شعبك المملوك[1]

إن اختيار ابن السنوسي لبرقة كان قراراً حكيماً، يدل على معرفته للمنطقة جيداً، فقد اتصفت برقة بفراغها السياسي وبجهلها العلمي وبكونها مخرجاً لأواسط إفريقيا[2].

وظل ابن السنوسي خمس سنين - وقيل ستة - في برقة، ينشىء الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا. ثم عاد بعد هذه السنوات

(1) انظر: المهدي السنوسي، للأشهب، ص(142، 143).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(88).

الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة عنده مركزان رئيسيان: شرقي في الحجاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك[1].

إن سفر ابن السنوسي إلى مكة يدلنا على أنه كان لديه مشروعات دعوية كثيرة في العالم الإسلامي، وأن هدفه فتح أراضي جديدة لدعوته، لقد استطاع ابن السنوسي أن يرسي قواعد الدعوة في برقة ويثبت أسسها، فغادر برقة وهو مطمئن إلى أن دعوته ستنتشر، وقد خلف وراءه عدداً من الإخوان للإشراف على الحركة.

لقد كان ابن السنوسي يخطط في تنظيم بحيث يكفل الاستمرار بغض النظر عن وجوده أو عدم وجوده[2].

(1) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(290).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(88).

obeikandl.com

المبحث الثالث

إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة

سافر ابن السنوسي إلى الحجاز، واستمرت مدة إقامت حوالي ثماني سنوات، وحفلت هذه السنوات بنشاط دعوي عالمي لابن السنوسي، دل على قدرته التنظيمية، وذكائه في تصريف شئون الدولة، وشرع في إنشاء الزوايا، وكثر دخول الناس في الدعوة، وتعرض لمتاعب من قبل بعض العلماء وقد تحدث الصادق المؤيد عن ذلك فقال: «مع أن المرحوم ابن السنوسي عندما كان في الحجاز لم يتعرض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى، فإنه أصبح دفاً لنقمة الآخرين ونقدهم. ومع ذلك فقد توسع نفوذ السنوسية ودخلت الصحراء جزيرة العرب حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني حارث وبني حرب، كما انتشرت الطريقة بواسطة الحجاج، وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة في الحجاز واليمن على الخصوص.

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسي من رقابة ومنافسة وعداء، فقد كان عدد المريدين في ازدياد، ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسية التي في جبل أبي قبيس في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة»[1].

وكانت لكل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص (فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف ومدرسة للتعليم ومساكن لقبول الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة. أما زاوية جدة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجاناً، فهي محل ضيافة عامة)[2].

واستطاع ابن السنوسي أن يساهم في تربية وتعليم القبائل من الحجاز، وأرشدهم إلى دينهم، وعمل ابن السنوسي بالإضافة إلى تأسيس الزوايا على تعليم مريديه بنفسه، فجلس في مكة يدرِّسهم الفقه والعلوم الأخرى. كما ألف لهم عدداً من الكتب منها كتابه (بغية المقاصد وخلاصة الراصد) المسمى بالمسائل العشر. وقد انتهى من كتابته كما تشير إلى ذلك النسخة المطبوعة سنة 1264 هـ أي أثناء إقامته في الحجاز، ومنها رسالة كتبت مقدمة لكتاب «موطأ الإمام مالك» في أول سنة 1267 هـ (وذلك حين بداءته لقراءة الموطأ) بغية إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب[3]، وربما قد كتب بعض مؤلفاته الأخرى في تلك الفترة، كإيقاظ الوسنان في العمل

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص(89).

(2) انظر: سياحتي في صحراء إفريقيا، ص(75).

(3) انظر: النسخة المطبوعة من المسائل العشر.

بالحديث والقرآن، والدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، والسلسبيل المعين، وقد ظهر في كتبه هذه اتجاهه الصوفي واعتماده على الكتاب والسنة وقوله بالاجتهاد.

وكان طوال إقامته في الحجاز، يحرص على الحج كل عام، ويتصل بالناس ويدعوهم إلى دعوته ويضم من يستجيب منهم، وكان على اتصال مستمر بأتباعه في برقة يوجههم ويصدر إليهم تعاليمه وإرشاداته بواسطة الرسائل. ويذكر الأشهب: «أنه كان يندب سنوياً من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته»[1].

وكان ابن السنوسي قد ترك زوجته وولديها محمد المهدي ومحمد الشريف في برقة وكان على اتصال بهم عن طريق الرسائل، وكان قد عين عمران بن بركة ومحمد بن إبراهيم الغماري للاهتمام بشئون أهله وولديه، وقد ذكر عبد القادر بن علي، بأن ابن السنوسي عندما بشر بمولوده الجديد قال: «الآن ظهر الصباح وخفي المصباح» وكان يقصد بالصباح ابنه والمصباح نفسه[2].

وعندما بلغ محمد المهدي الخامسة من عمره «أرسل ابن السنوسي إلى الإخوان الكافلين له وقال لهم: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر»[3].

وعندما بلغ محمد المهدي السابعة من عمره أرسل إليهم ليوجهوه إليه مع زوج خالته، فارتحل به، ولما اجتمع ابن السنوسي بولده سُر به سروراً عظيماً وطلب لوح قراءته فوجد أوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فازداد سروراً، وزوّره الروضة الشريفة ولقنه ما عنده من الدعاء ثم زوّره المآثر كلها التي بالمدينة، كمسجد المائدة ومسجد القبلتين وجبل أحد، وقبور شهداء أحد، وقبر حمزة رضي الله عنه[4].

وكان قبل مجيء ابنه قد تزوج ابن السنوسي زوجته الرابعة والأخيرة (ابنة حسن البسكري). وكانت بدرنة مع أختها وأخواتها وتوفي والدها، فأرسل ابن السنوسي إلى ابن أخي حسن البسكري أن يأتي بالأم وبناتها، وكانت أكبر البنات تحت عبد الله البسكري ابن أخي حسن البسكري، فرحل بها إلى الحجاز وتزوجها ابن السنوسي ورزقت منه بولد وتوفي صغيراً ولم يفارقها حتى مات[5].

وعندما بلغ محمد المهدي التاسعة غادر والده المدينة إلى مكة وتركه مع زوجة أبيه

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(43).
(2) انظر: الفوائد الجلية (1/ 60).
(3) أحمد الشريف، مخطوط، ص(76).
(4) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص(78).
(5) انظر: الحركة السنوسية، ص(93).

البسكرية فاعتنت به كثيراً. وفي جمادى من سنة 1269 هـ طلب ابن السنوسي ابنه محمد المهدي من المدينة وأرسل يطلب من الإخوان في برقة بإرسال ابنه محمد الشريف.

وذكر أحمد الشريف رحلة والده فقال: (فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله ومروا على العقبة ثم منها إلى الإسكندرية ثم إلى كرداسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزروالي أقاموا بها أياماً ثم إلى السويس وركبوا البحر قاصدين جدة.. وأتتهم ريح عاصفة قبل نزولهم قلعت بالمركب حتى أيقنوا الغرق. وتقطعت الأشرعة وآخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع فنزلوا بها وأقاموا أيّاماً للاستراحة. ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة فزاروا الروضة الشريفة واجتمعوا بالباشا الذي رحب بهما وأعطاه ساعة تساوي مئة، وبعد ذلك بنى جامع الزاوية التي بالمدينة بناءً متقناً من نفسه جزاه الله خيراً. وكان بالمدينة يومئذ السيد عبد الله التواتي وأكرمهم غاية الإكرام. وأقاموا بها ثلاثة أشهر ونصف، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة منتصف ذي القعدة سنة تسع وستين بعد المائتين والألف بصحبة السيد التواتي.. وتخلف السيد عبد الله لوجع في رأسه وحمى معه آخر فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبت الريح.. وقطاع الطريق قد أحاطوا برواحلهما لينهبوا ما عليها فقاموا إليهم للمدافعة عما أرادوه فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض وجرحوا صاحبه، واكتشف رجال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولاً ينظر سبب تأخر الرجلين، فتوقفوا لدفنه وساروا في خوف وحزن يحرسهم العسكر الذي أرسله الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة[1].

وقد حزن ابن السنوسي على مقتل عبد الله التواتي الذي كان من أوائل رفاقه وكان المسئول الأول عن نشاط الحركة في الحجاز، وقد أمر ابن السنوسي بنقله إلى بدر، حيث دفن بجوار الشهداء ﷺ أجمعين[2].

كان عبد الله التواتي من كبار العباد في الحركة السنوسية وقد حدثني أستاذي في اللغة العربية الشيخ راشد الزبير السنوسي عندما كنا معاً في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب بأن عبد الله التواتي كان يقول: والله لأزاحمنَّ أصحاب النبي ﷺ على أبواب الجنان بركبتي، وكان عبد الله التواتي شديد الإخلاص لابن السنوسي حتى أنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله[3]، وقد أصاب قاتليه مرض مزمن وماتوا ميتة بشعة، وانتشر خبر وفاتهم بين قبائل الحجاز، فأصبحوا يتحاشون السنوسية وأتباعهم ولا يمسونهم بسوء أبداً، حتى أن أهل مكة والمدينة كانوا

(1) انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص(79).
(2) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 72).
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص(90).

إذا أرادوا الحج أو الزيارة فلا يخرجون إلا مع الركب السنوسي لكي يأمنوا حياتهم وأمتعتهم[1].

أولاً - عودة ابن السنوسي إلى برقة:

بعد وصول محمد الشريف ابن السنوسي إلى مكة وكان بصحبته جده لأمه أحمد بن فرج الله ووالدته وعمران بن بركة الفيتوري، وكثير من الإخوان، وحج الجميع مع ابن السنوسي، وقدم من برقة في هذا الحج كثير من أعيانها ووجهائها ومشائخ القبائل منهم[2]: الشيخ أبو شنيف الكزة والشيخ عمر جلغاف، وعبد الله أبو سويحل، والحاج محمد كاهية وغيرهم ليلتمسوا من السيد عودته إلى البلاد المتعطشة لدعوته، فكان يعدهم خيراً، ومما يلفت النظر أن الشيخ أبو شنيف الكزة الذي تجشم مشاق الطريق لرؤية السيد كان عمره يتجاوز المائة سنة، لقد كان شوق الإخوان في برقة إلى ابن السنوسي عظيماً، فهذا أحمد الطائفي يرسل من درنه قصيدة إلى ابن السنوسي جاء فيها:

يا من نأوا عني وشط مزارهم ... وتجددت لبعادهم أحزاني
نار الجوى بين الجوانح أضرمت ... والروح فارق بعدكم جثماني
لا كان يوم البين لا كان النوى ... يا ليتني أدرجت في أكفاني
حر النوى أوهى قوى تجلدي ... وأعل جسماً طبه أعياني
وأطال سهري والخلائق هجع ... وأثار وجداً كامناً بجناني
وسقى رياض الشوق يوم وداعهم ... بسواكب العبرات من أجفاني
فطويت حينئذ بساط مسرتي ... ونشرت بعدكم رداء أحزاني[3]

وبعد أن ألح زعماء برقة على رجوع الشيخ ابن السنوسي معهم، استخار الله سبحانه وتعالى وسأله إرشاده إلى الطريق التي يرضاها سبحانه وتعالى وفيها نفع للأمة المحمدية، فأراه الله ما ألهمه وقوى عزيمته على العودة إلى برقة، فرتب الأمور بالحجاز وعين مشايخ للزوايا وزودهم بما رآه وحرضهم على سلوك طريقته في إرشاد العباد ودلالتهم على الله والتمسك بسنة سيدنا رسول الله ﷺ وبذل النصح للمسلمين أينما كانوا، وأناب عنه في زاوية أبي قبيس الشيخ محمد إبراهيم الغماري، وأبقى ابنيه ووالدتهم وجدهم في مكة، وأمر محمد الغماري وأحمد البقالي بتعليم ابنيه القرآن الكريم وغيره من العلوم وحمل معه جميع كتبه وأثاثه ورافقه جميع الإخوان الملازمين له، والأعيان والشيوخ القادمون من برقة وتوجه من مكة إلى المدينة وأقام بها

(1) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 73).
(2) المصدر السابق (1/ 78).
(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(168).

ما يزيد عن مدة شهر[1]، وقد ذكر بعض المؤرخين أسباب خروجه من الحجاز، فقال بعضهم: كان لديه رغبة لزيارة الشام. وقد أثبت الملك محمد إدريس هذه الرغبة فقال: «إنه كان يفكر بزيارة الشام بعد إقامته الثانية وهم بالتوجه إليه، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر»[2]. ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز «اشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج»[3]. أما غرضه من زيارة القدس والشام، فأغلب الظن أنها كانت لزيارة المسجد الأقصى لنشر دعوته، ولكن هذه الزيارة لم تتم[4]. وقد ذكر ابن السنوسي «كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس، ثم في أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا» (يقصد برقة)[5].

وانفرد البستاني بالقول أنه خرج من مكة خائفاً من تهمة مشاركته مع الشريف عبد المطلب، شريف مكة، الذي عصى الدولة العثمانية: «لذلك خاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل منها عائداً إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر»[6] إلا أن هذا القول يسقط ويتهاوى أمام حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن الصدام مع السلطة العثمانية، واصل ابن السنوسي سيره من المدينة متجهاً إلى مصر ودخلها عام 1854 م، وغادرها إلى الجبل الأخضر «ونزل بمحل يعرف بالغزيات وهو قصر قديم فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات وأقام هناك سنتين»[7] وكان في تلك الفترة يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا، وكان يرسل مندوبين عنه لتفقد أحوالها، وكان كبار الإخوان يقدمون على العزيات لزيارة ابن السنوسي، فكان يسمع أخبار الزوايا، ويصدر إليهم تعليماته[8].

وبعد أن أقام ابن السنوسي عامين في العزيات عزم على التحول إلى الجغبوب، وكان قصده التوغل في الصحراء حتى يكون أكثر أمناً[9].

---

(1) انظر: الفوائد الجلية، (1/ 79).
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص(96).
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص(43).
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص(97).
(5) المصدر السابق نفسه، ص(96).
(6) انظر: البستاني، دائرة المعارف، مادة سنوسي.
(7) المصدر السابق نفسه.
(8) انظر: الحركة السنوسية، ص(99).
(9) انظر: المصدر نفسه، ص(101).

ثانياً - أسباب اختيار الجغبوب:

إن اختيار ابن السنوسي للجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية دليل على بعد نظره، وثاقب فكره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه وقد ذكر المؤرخون أسباب ذلك الاختيار فقالوا:

1 - أراد أن يجعل من الجغبوب مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة ونشر راية دعوة الإسلام بينهم جميعاً، وكان الجغبوب مركزاً أحسن اختياره، وكان صالحاً لأغراضه في وسط قبائل في الشرق والغرب، وكان النزاع بينهما مستمرّاً، ومن ثم أمن للحركة السنوسية أن تبسط نفوذها في المتنازعين، وأن تصلح ذات بينهم.

2 - الاهتمام بأبواب الصحراء المترامية الأطراف من نواحي الغرب والجنوب والشرق ولذلك كانت زاوية الجغبوب نقطة مهمة وأعقبتها عدة زوايا فيما بعد تخدم نفس الهدف، من أجل ضمان السلامة والأمن في الصحراء، وضمان المحافظة على طرق التجارة إذ كانت طرق القوافل تربط بين الجزائر وطرابلس، وتشاد، وبرقة، ومصر.

3 - كان البدو في ليبيا يضطرون أحياناً إلى ترك دواخل ليبيا بسبب خلاف يقع بين قبيلة وأخرى أو مع الدولة العثمانية، فتكون وجهة النازحين نحو الصحراء، ولذلك فكر ابن السنوسي ونظر إلى هذا الأمر ببصيرة نافذة، فأوجد هذه الزوايا في المواقع البعيدة ليأوي إليه النازحون عن دواخل البلاد، فيجدوا أمناً وأماناً[1].

4 - ازدادت عداوة علماء استانبول والقاهرة لأفكار ابن السنوسي الدعوية، فرأى أن يبتعد عن الساحل ويتوغل في الصحراء بعيداً عن السلطات العثمانية.

5 - كان ابن السنوسي قد شعر بدنو استيلاء النصارى الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب والإقامة في الصحراء[2].

وكان الجغبوب في تلك الآونة «واحة ملحة يأوي إليها الدعار واللصوص ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها. فلما اختارها (السيد) مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى صارت مهد أمان ومركز عبادة، ومشرق أنوار ومعلم هداية، فغرس بها الأشجار ونسق الجنان واستنبط العيون وتوسع في البناء، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة أجلس للتدريس فيها جلة العلماء»[3].

(لم تكن الجغبوب مكاناً يصلح لحياة فخمة ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية؛ فهو خارج

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، الطيب الأشهب، ص(101، 102).
(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، (2/ 142).
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص(36).

قبضة الترك والفرنسيين والمصريين، وهو على خط الحج الرئيسي القادم من شمال إفريقيا الغربي عبر مصر إلى مكة، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجاري آخر من الساحل إلى الصحراء إلى السودان؛ بالإضافة إلى ذلك فإنها كانت أكثر النقط توسطاً في برقة التي تشكل شبه جزيرة حتى أنه منها ما يكون على مقربة من زواياه وطرابلس والصحراء الغربية في مصر والسودان)[1].

ثالثاً - الإخوان السنوسيون الذين حملوا مع ابن السنوسي الدعوة:

كان ابن السنوسي في تجواله بين الأقطار الإسلامية يقوم بدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام، وسلك منهج القرآن الكريم في دعوته، فكان يقوم بوظيفته الدعوية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة، آية: 151].

وتمثل هذه الواجبات الأمور التالية:

أ - تبليغ وحي الله إلى الناس، وتعريفهم به ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وكان يقوم بالتبليغ بالأمور الآتية:

1 - شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

2 - تفسير نصوص القرآن والسنة تفسيراً لمنهج السلف، وملائماً لعصره من حيث الأسلوب والوسيلة.

3 - جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

4 - استهدف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة، أو منافقين.... إلخ.

5 - بيان الأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها.

ب - تزكية الناس: حيث قام ابن السنوسي بتربية الناس على الصفات المحمودة، وتذكيرهم بخطورة الأخلاق الذميمة.

ج - التعليم، حيث قام ابن السنوسي بتعليم الناس القرآن والحكمة، ونقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق.

---

(1) انظر: بريتشارد، ص(15)، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص(113).

واستطاع أثناء تحركه بدعوته أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء والفقهاء والدعاة، ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته، فبعضهم أصبح مشرفاً ومعلماً في الزوايا المنتشرة في ليبيا وتشاد، والحجاز، ومصر، وبعضهم أصبح من أعضاء هيئة التدريس العلياء في الجغبوب، وكان هؤلاء الإخوان الذين ساندوا الحركة السنوسية منهم من هو من الحجاز، كالشيخ فالح الظاهري، ومحمد بن الصادق الطائفي؛ ومنهم من هو من الجزائر، كأبي القاسم التواتي؛ ومنهم من هو من تونس، كعلي بن عبد المولى؛ ومنهم من هو من السودان، كالسيد محمد بن الشفيع، ومنهم من هو من برقة، كعبد الرحيم المحبوب، ومنهم من هو من طرابلس كعمران بن بركة الفيتوري[1].

واختار ابن السنوسي من كبار علماء الحركة للتفرغ للتدريس في معهد الجغبوب . . . وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب، حيث تدرس جميع أنواع العلوم[2]، فلا ينحصر التعليم على حفظ القرآن (وهذا شرط أساسي)، وبعض العلوم الدينية والعربية، كما هو الحال في كثير من المعاهد وقتذاك، وحتى الآن؛ بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطاً بعيداً وسار خطوات واسعة، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء والأعلام تحت إشراف السيد ابن السنوسي نفسه الذي يضع برامج التعليم ويقرها، فتخرج من هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم. . . فمنهم العلماء والكتاب والمصنفون[3].

وقد ذكر محمد الطيب أسماء بعض العلماء الذين قاموا بإلقاء الدروس في معهد الجغبوب تحت إشراف ابن السنوسي فمنهم: عمران بن بركة الفيتوري، أحمد عبد القادر الريفي، فالح الظاهري، أحمد التواتي، عبد الرحيم أحمد المحبوب، محمد ابن أحمد الشفيع، أبو سيف مقرب حدوث البرعصي، حسين الموهوب الدرسي، محمد صادق الطائفي، أحمد الطائفي، محمد مصطفى المدني، محمد القسطيني، محمد حسن البكري[4].

لقد قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء والفقهاء والقادة، والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة:

1 - محمد عبد الله التواتي، وهو من أوائل إخوان ابن السنوسي وتلاميذه، وقد قام بعدة

(1) انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص(298).

(2)و(3) دراسات وصور، للحاجري، ص(297).

(4) انظر: السنوسي الكبير، ص(50).

أعمال كلفه بها ابن السنوسي في كل من الحجاز واليمن وليبيا، وقتل في الحجاز ودفن بزاوية بدر وقد مرّ ذكره.

2 - أحمد أبو القاسم التواتي من الجزائر، وقد تولى مشيخة زوايا سيوة والزيتون وزوايا فزان، وكان أحياناً ينتدبه ابن السنوسي للتفتيش على الزوايا ومراقبة أحوالها، ومما قاله ابن السنوسي في حقه في كتاب أرسله إلى أعيان واحة سيوة قوله: «وولدنا الشيخ أحمد التواتي قد أقمناه مقامنا، وما أرسلناه إلا لمنفعتكم خاصة، وإلا فغيره يقوم مقامه، واسمعوا لنصيحته فإنه نصوح أمين وقد هدى الله به أمماً عديدة»[1].

توفاه الله بزاوية الطيلمون وقد رثاه زميله العلامة فالح الظاهري بقصيدة عصماء مطلعها:

على مثل من أوقاته حلية الدهر ... بصالح أعمال، دموعك فلتجر

كما رثاه شاعر السنوسية أبو سيف مقرب بقصيدة مماثلة جاء فيها:

سل الدهر هل يبقي سعيد مخلداً ... ولو كان أبقاه لأبقى محمدا

يكر علينا ليله ونهاره ... شجاعين لا يثنيها من تجلدا[2]

ومنها:

ألا ليت شعري كيف صاروا بنعشه ... إلى القبر وهو الطود ذو المجد والندى

حوى نعشه علماً وفخراً وسؤدداً ... وحلماً وتقوى ما سواها تزودا

3 - علي بن عبد المولى من تونس، تولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيل خاصة ابن السنوسي واستمر في عهد محمد الثاني، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى، توفي بالجغبوب.

4 - أحمد بن فرج الله من طرابلس، وهو والد أم محمد المهدي، ومحمد الشريف وقد توفاه الله بالبيضاء ودفن بمقبرة الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري ولم يترك عقباً من الذكور.

5 - محمد بن الشفيع من سنار السودان، كان من بين تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس الفاسي دفين (صبيا)، وتعرف على ابن السنوسي أثناء حضوره عند أحمد بن إدريس وسمع ما شهد به ابن إدريس لابن السنوسي، وقد تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة زاوية المدينة، والقيام بالتفتيش على الزوايا في كل من الحجاز وليبيا، وكانت آخر أعماله مشيخة زاوية سرت (خليج سدرى)، وكان من أجل العلماء علماً وتقى وشدة في الحق وشجاعة[3] وكان يهابه حكام الأتراك

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(58).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(59).
(3) انظر: المصدر نفسه، ص(60).

وزعماء العرب لشدة تحرشه معهم في الحق رغم جميع المجاملات، وكانت له مواقف مشهورة مع الفريق الحاج رشيد باشا عندما كان هذا الأخير حاكماً لبرقة، وكان يحترم ويجل ابن الشفيع، وذات مرة سافر رشيد باشا إلى الجغبوب وكان يصحبه ابن الشفيع وشرع رشيد باشا يتلو القرآن وابن الشفيع يستمع حتى وصل القارىء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: 21-22] فقال ابن الشفيع: أتعلم يا رشيد أن جهنم خلقت لمن؟ فقال رشيد: الله أعلم يا سيدي فأجابه قائلاً: إنها لك ولأمثالك ما لم تأخذوا بكتاب الله، فضحك رشيد وقبل يد ابن الشفيع، وتوفي ابن الشفيع بسرت سنة 1324 هـ[1].

6 - أحمد المقرحي، وقد سماه ابن السنوسي بالمفرح، من بادية طرابلس، وكان من طليعة علمائها الذين يرجع إليهم علي باشا عشقر الحاكم العثماني، وفي بعض الروايات أنه تولى الإفتاء في ولاية طرابلس، وقد مر ذكر المناظرة التي قامت بين علماء طرابلس وابن السنوسي وقد توفي المقرحي بالزاوية البيضاء عام 1263 هـ ودفن بمقبرة رويفع الأنصاري ولم يترك عقباً.

7 - عمران بن بركة الفيتوري، من زليطن، أسندت إليه مشيخة الزاوية البيضاء، وقام بالتدريس في معهد الجغبوب، وكان مدرساً لمحمد المهدي السنوسي، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بين زملائه وتلاميذه، توفي بالجغبوب عام 1310 هـ ورثاه شاعر الحركة السنوسية أبو سيف مقرب البرعصي بقوله:

لقد سرت يا مولاي للقبر نيراً ... ولا عجب فللنيرات تسير
وإن جار دهر في انتهابك واعتدى ... فما زال قدماً يعتدي ويجور
له كلف بالأكرمين فكاسه ... تدار عليهم عاجلاً وتدور
ويعتامهم بين الأنام فنبله ... يصيب وأما خيله فتغير
ألا إن للدنيا مصائب جمة ... ولكن مصابي بالكبير كبير
مصاب له فاضت نفسيات أنفس ... ولان له (رضوى) ولان (ثبير)
فيا واحداً ضج الجميع لفقده ... وعج كبير بالبكاء وصغير
قضيت حميداً وانقضى العلم والتقى ... وآضى جناح الدين وهو كسير[2]

وقد تزوج الإمام محمد المهدي كبرى بناته وتزوج محمد الشريف بالثانية، فأنجب منها المجاهد الإسلامي الكبير أحمد الشريف[3].

(1) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(143).
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص(61).
(3) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(145).

8 - عبد الله بن محمد السني - من سنار السودان . كان من تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس، وتولى أعمالاً كثيرة منها إلقاء الدروس في مختلف العلوم وتولى مشيخة زاوية مزدة حيث توفاه الله بها.

9 - فالح الظاهري - من الحمراء بالحجاز - ينتسب لبني حرب، التحق بابن السنوسي سنة 1243 هـ في مكة وتفرس فيه ابن السنوسي نجابة وذكاء، كان من طليعة المدرسين بالمعهد الجغبوبي، زار استانبول مندوباً عن ابن السنوسي، كما زارها في عهد السلطان عبد الحميد ونزل في ضيافته معززاً مكرماً، ثم زار الهند، وجلس للتدريس في جميع البلاد التي زارها، ومما يلي نذكر بعض ما ورد في رسالة منه إلى العلامة أحمد الريفي رحمهما الله: «وفي هذه السبع سنين، بعد قدومي من البلاد الرومية حصل لي من إفادة العلوم غطوس ما أفقت منه إلا وأعضائي بها خلل من طول الجلوس، لكنني ولله الحمد حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب؛ ولم يبق قطر من الأقطار إلا وحمل عني إليه دفتر (مفالحة) شيخنا الأستاذ، وهذا أقصى أمنيتي من كوني جعلت في الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حتى في الهند والسند. .)[1] كان العلامة فالح الظاهري متضلعاً في العلوم الدينية والفقهية والحديثية والتاريخية واللغوية وكان شاعراً يقرض الشعر، توفاه الله سنة 1327 هـ بالحجاز[2] وله عدة تآليف لم تطبع منها: «أنجح المساعي»، و«حسن الوفا لإخوان الصفا»، و«صحائف العامل بالشرع الكامل»[3].

10 - عبد الرحيم بن أحمد المحبوب (البنغازي) تتلمذ على يد ابن السنوسي، وتولى مهاماً كثيرة أسندت إليه منها: مصاحبة محمد المهدي من الحجاز إلى الجغبوب، وكان مفتشاً على الزوايا، وتولى مشيخة زاوية بنغازي، وانتدب لزيارة استانبول في عهد ابن السنوسي، كما زارها في عهد محمد المهدي، وقام بإلقاء الدروس بمعهد الجغبوب، توفاه الله بزاوية بنغازي 1305 هـ[4].

11 - حسين الغرياني، تتلمذ على يد ابن السنوسي وانضم إلى مجلس الإخوان وعرف عنه الصدق والإخلاص والحزم في جميع أعماله، وتولى رئاسة الزاوية البيضاء ثم عين لرئاسة زاوية جنزور وعرف عنه الصلاح والتقوى والتفاني في عمله، وتوفي بزاوية جنزور المعروفة باسم زاوية دفنه[5].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(62).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(62).
(3) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(150).
(4) انظر: السنوسي الكبير، ص(64).
(5) انظر: برقة العربية بين أمس واليوم، ص(151).

12 - أحمد بن عبد القادر الريفي، من تلمسان بالجزائر، التحق بابن السنوسي سنة 1267هـ فلازمه ملازمة صادقة وقام بكثير من أعمال الحركة السنوسية وأخذ عنه محمد المهدي السنوسي الكثير من العلوم، ثم أصبح المستشار الخاص لمحمد المهدي، وكان معروفاً بالحلم والورع ولين الجانب، وذكر بعض المؤرخين أن محمد المهدي السنوسي كان يتلو القرآن الكريم، وعندما مر بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: 63-64] قال: إن معنى هذه الآية ينطبق على السيد أحمد الريفي[1]، وكان مستشار الحركة السنوسية الخاص، وتولى رئاسة مجلس الإخوان بالجغبوب توفي عام 1329 هـ/ 1911 م، فشق موته على أفراد البيت السنوسي وجميع الإخوان وعامة أهل برقة ورثاه الشعراء والعلماء ومن بينهم تلميذ أحمد إدريس الأشهب حيث قال:

صبرت وما قلبي عليك بصابر ... فأنت إمام الأولياء الأكابر
تركت دموع العين تجري صبابة ... وسرت إلى أهل العلى والمقابر
مكثت بجغبوب وتاج ومكة ... وأنت تفيد القوم أهل المحابر[2]

13 - محمد الصادق - من الطائف - التحق بابن السنوسي بالحجاز وأسندت إليه أعمال كثيرة، وقد أرسله ابن السنوسي إلى الجزائر أكثر من مرة بمهمات خاصة تتعلق بدعم حركة الجهاد في الجزائر، وتولى مشيخة زاوية الجريد بتونس كما كان حلقة الوصل بين المجاهدين في الجزائر والزوايا السنوسية، وقد توفي بالجريد.

14 - محمد بن مصطفى حامد المدني - من تلمسان - التحق بابن السنوسي في الحجاز عام 1267 هـ، وتولى أعمالاً كثيرة في الحركة السنوسية منها تعليم القرآن الكريم، وإلقاء الدروس، والإشراف على شئون الطلبة والعمال في الجغبوب، ثم مشيخة زاوية تازربو حيث توفاه الله هناك.

15 - عمر محمد الأشهب من زليطن - تعرف على ابن السنوسي مع زميله عمران بن بركة، تولى زاوية درنة، ومشيخة زاوية مارة، ثم مشيخة زاوية مسوس، توفاه الله بها.

16 - مصطفى المحجوب من مصراته، وقد تعرف على ابن السنوسي والتحق به في الزاوية البيضاء سنة 1258 هـ تولى مهامّاً كثيرة آخرها مشيخة زاوية الطيلمون.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(65).
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(169، 170).

17 - أحمد بن علي أبو سيف من بادية طرابلس، تولى أعمالاً كثيرة منها التدريس ومشيخة زاوية مسوس، وزاوية مارة، وتوفي بالحجاز 1294 هـ.

18 - أبو القاسم العيساوي - جبل طرابلس - تولى مشيخة زاوية الرحبان، وانتدب إلى دار الخلافة.

19 - محمد إبراهيم الغماري من المغرب الأقصى (مراكش) تولى أعمالاً كثيرة منها مشيخة الزاوية البيضاء والإشراف على صناعة تجليد الكتب الخاصة بمكتبة الجغبوب وتنظيمها.

20 - إبراهيم الغماري - مراكش - تولى مشيخة زاوية دريانة ضمن الأعمال المناطة به.

21 - مصطفى الغماري - مراكش - تولى أكثر من زاوية بالحجاز حيث توفاه الله هناك.

22 - محمد حسن البسكري، كان يقوم بالسكرتيرية لمحمد المهدي فيما بعد.

23 - عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي: كان من أوائل رفاق ابن السنوسي، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى والاستقامة، وقد ندبه ابن السنوسي إلى أكثر من مهمة في كل من الحجاز وليبيا والسودان وشمال إفريقيا، وقد تولى مشيخة زاوية الجوف بواحة الكفرة التي توفاه الله بها.

24 - مصطفى الدردفي - من مصراته - كان من رفاق ابن السنوسي تولى مشيخة زاوية شحات.

25 - محمد بن حمد الفيلالي - من المغرب - كان من رفاق ابن السنوسي، وقد انضم إليه من الجزائر، وتولى أعمالاً كثيرة منها رئاسة مجلس الإخوان في برقة، وقد وصفه ابن السنوسي بالرئاسة[1] إلا أنه بعد سفر ابن السنوسي الأخير إلى الحجاز انفرد (بن حمد) في عمله وأساء التصرف واستبد عن رأي مجلس الإخوان، كما أخذ يهددهم ويهينهم بمختلف الإهانات وهم يتحملون ذلك ويرون طاعته مع الصبر على المكاره شيئاً ضرورياً؛ لأنه الوكيل عن ابن السنوسي، ولما ظهرت تصرفاته لابن اسنوسي أمر بفصله ثم سافر إلى الحجاز وهناك استقبله ابن السنوسي وقال له: «أتعبتنا يا أخانا بن حمد فما من كلمة سوء وجهتها لأحد إخواننا إلا وقد وجهت لنا بالذات، وما من ضربة سوط أصابت جسم أحدهم إلا وقد أصابتنا مباشرة»[2].

26 - محمد أحمد السكوري - من صنهاجة بالمغرب - تولى مشيخة زاوية الواحات البحرية وأوفده ابن السنوسي في مهمة إلى الحجاز ثم ولاه مشيخة زاوية المرج، ورث عن أبيه ثروة ضخمة ومحبة البدو الذين عرفوا والده وأحبوه[3].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(67).

(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(153).

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(157).

27 - المرتضى فركاش: ينتسب إلى نوح المسماري الشريف الحسني، كان من كبار الشخصيات المحترمة بالجبل الأخضر، يمتاز بين قبائل العرب بالدهاء وكثرة التجارب والمرونة وكرم الأخلاق وحسن التصرف وله شهرته الإصلاحية وقد ساعدته ثروته الطيبة وقتذاك على الاحتفاظ بمركزه الاجتماعي والأدبي، وكان يعيش الحضر والبادية فيأوي مدينة درنة في وقت الصيف ويختلف إلى سكنى البادية في موسم الشتاء والربيع، وعندما وصل ابن السنوسي إلى الزاوية البيضاء التحق به وأخذ في خدمته بكل إخلاص فنال حظوة عند سيادته وكان يلازمه في تنقلاته داخل برقة وحج معه البيت الحرام، وحفظ القرآن وتفقه في الدين بقدر الإمكان، أنجب أولاداً كانوا جميعاً في خدمة الحركة السنوسية، وكان لأمر هؤلاء الأولاد دوراً بارزاً في الجهاد ضد إيطاليا، وتميزت عائلة فركاش من بين قبيلة المسامر بخدماتها الجليلة للإسلام من خلال الحركة السنوسية، وارتبطت بصلات المصاهرة مع كثير من الإخوان منهم الأشهب، المحجوب، عبد المولى الغرياني[1].

28 - أبو سيف مقرب: هو من أشهر بيوتات السعادي ينحدر من عائلة طامية البراعصة وفي بيته رياسة قبائل البراعصة، وهو من خيرة رجال الحركة السنوسية، سلمه والده طفلاً لابن السنوسي، وكانت تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة، وكان من بين العمال الذين قاموا ببناء زاوية البيضاء فزلقت رجله وتصادم رأسه بالحجر فشج حتى قيل أن دماغه ظهر للعيان فجيء إلى ابن السنوسي فضمد رأسه بقطعة من عمامته قائلاً: «هذا الرأس سيملؤه الله علماً وحكمة» وصدقت فراسة ابن السنوسي ونبغ المصاب الذي كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وأصبح من أبرز العلماء كما كان في طليعة أدباء الإخوان، وكان من كبار المدرسين في معهد الجغبوب، توفي رحمه الله بزاوية الجوف (الكفرة) وصلى على جثمانه محمد المهدي الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكان ذلك عام 1315 هـ[2].

29 - الحسين الحلافي - المغرب - تولى من الأعمال مشيخة زاوية المخيلي.

30 - المختار بن عمور - من أشراف الجزائر - كان من تلاميذ ابن السنوسي، تولى مشيخة زاوية قفنطة.

31 - محمد حيدر الهوني، اشتهر بإجادة تلاوة القرآن ترتيلاً حتى روي عن ابن السنوسي أنه كان يقول: «يا هوني قراءتك للقرآن تقول اسمعوني».

32 - عمر جلغاف حدوث، من زعماء قبائل برقة - أخلص للحركة السنوسية، وكان ضمن الوفد الذي التمس من ابن السنوسي عندما كان في الحجاز أن يرجع إلى برقة، وكان

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(158).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(153).

ضمن مجلس الإخوان في البيضاء، وأوفده ابن السنوسي لتفتيش الزوايا والقيام ببعض المهام فيها.

33 - الفضيل أبو خريص الكزة - أحد زعماء برقة - انضم إلى ابن السنوسي، وكان حظه من التعليم قليلاً إلا أنه قام بمهمات كبيرة في السودان والحجاز والجزائر[1].

بالإضافة إلى هؤلاء كان مجموعة طيبة من أعيان وزعماء برقة من الحضر والبادية ومن بينهم الأمين بك شتيوي متصرف بنغازي، ومحمد بك كاهية وجميع أفراد أسرته، والشيخ علي القزيري، والحاج عبد الله بن شتوان، والشيخ محمد الأسمع والحاج سالم عثمان، وكبار عائلة منينة وابن زلح، وهؤلاء من وجهاء وعيون بنغازي، أما من درنة فقد انضم إليه جميع أعيانها ورؤسائها منهم وقتذاك عائلة جريل، وعائلة ساسي وستيته، ومن شيوخ البدو علي بك الأطيوش، والحاج محمد قادربوه، والشيخ حمد اللواطي، وأبو بكر بك حدوث وعمر جلغاف وعبد الله سويحل عمدة عائلة مريم وأضرابهم من الشيوخ والعمد والأعيان وعامة الأهالي، هؤلاء جميعاً كانوا من أنصار الحركة السنوسية انصهروا في بوتقتها، وتبنوا تعاليمها، وأصبحوا من دعاتها.

كان هؤلاء الإخوان من شتى بقاع المعمورة فآخى بينهم ابن السنوسي وهم لم يتعارفوا قبله إذ لا صلة تربطهم غير الإسلام، فأصبحوا كجسد واحد غير قابل للتجزئة، جاءوا من تونس، والجزائر، ومراكش والريف وسوس الأقصى، وطرابلس الغرب وباديتها وبرقة وباديتها ومصر وصعيدها والسودان والحجاز واليمن ونجد، فأصبحوا لا هم لهم إلا خدمة الإسلام[2].

رابعاً - الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع عند ابن السنوسي:

لقد استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي والاجتماع على البر والتقوى الذي سلكه ابن السنوسي

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(69).
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص(159).

هو طريق أهل السنة والجماعة الذي التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، في العقائد والأخلاق، والعبادة، والمعاملات، وكافة شئون الحياة، إن المنهج الذي اجتمع عليه الإخوان السنوسيون هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن ذلك طريق الاعتصام بحبل الله وهذا الأصل من آكد الأصول في هذا الدين العظيم، ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهى عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدره الله ﷻ كوناً، ووقع كما قدر، إلا أنه. سبحانه .لم يأمر به شرعاً، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم عوامل النهوض، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد، : 11].

لقد تضافرت جهود دعاة الحركة السنوسية وقادتها وعلمائها وطلابها لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وكأنهم اعتقدوا أن: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان»[1].

«إن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية»[2].

إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم كانت من أهم أهداف الحركة السنوسية؛ لأن قادة الحركة أيقنوا بأهمية هذه الخطوة في إعزاز المسلمين، وتحكيم شرع ربهم، وتقوية دولتهم.

إن ابن السنوسي عمل على وضع منهج سار عليه علماء الحركة من أجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنة رسوله ولذلك اهتم بالآتي:

---

(1) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، للسعدي، ص(5).

(2) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، ص(5).

أ - وحدة العقيدة:

أيقن ابن السنوسي أنه لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، وكان يعلم بأن العقيدة تشكل أساساً مهماً في البناء الفردي والاجتماعي، وهي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار. وإن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دونوا هذه العقيدة تدويناً يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال[1].

إن سلامة الاعتقاد وصحته هي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزها وسعادتها في الدنيا والآخرة، إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافي النقي الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العوائد الفاسدة.

إن طريق النهوض بالأمة لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية، والطريق لفهم القرآن الكريم والسنة المطهرة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعون بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: 100].

فوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[4].

---

(1) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، للصلابي، ص(255).

(2) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، ص(255).

(3) انظر: مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة، (4/ 1963) رقم (2533).

(4) انظر: الموطأ، رقم (1619).

وعنه ﷺ : «من كان متأسياً فليتأسّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[1].

لقد اهتمت الحركة السنوسية بجانب العقيدة وكانت رسالة أبي زيد القيرواني العلمية ضمن مقررات مناهج الحركة، وتعتبر هذه الرسالة من أنفع التآليف في الفقه المالكي قاطبة، وذلك لمكانة مؤلفها العلمية من ناحية، ولسهولتها ويسرها وجمعها لأصول العقيدة والفقه والآداب من ناحية أخرى.

وهي كما وصفها مؤلفها ابن أبي زيد في مقدمتها: «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس ﷺ وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته»[2].

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: (باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك له. ليس لولايته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، لا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم. . العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة. كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه،

(1) انظر: حلية الأولياء (1/ 379).

(2) انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص(9).

وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، والإيمان بالقدر خيره وشره.. حلوه ومره.. وكل ذلك قدّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عبادة قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شيء، هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يَتُب من الكبائر صائراً إلى مشيئته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7] ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.. وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابهم.

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8] ويؤتون صحائفهم بأعمالهم... وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويذاد عنه من بدل وغير، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة لا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة. وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين. وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويُسألون ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27] وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً[1].

هذه العقيدة السنية البهية كانت تدرس في مناهج الحركة السنوسية، ويتربى عليها القادة، والجنود، وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ الأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه[2] ويعلمون الناس أوامر القرآن والسنة الشريفة وأصول التوحيد، ويحرمون التضرع للأولياء، ويربون الناس على أن يكون التعبد لله وحده[3]. كانت بعض القبائل في الصحراء الكبرى وإفريقيا قد انحرفت عن عقيدتها الصحيحة، فجاء إليهم علماء الحركة السنوسية يبينون لهم عقيدتهم ويتلون عليهم آيات الله التي تبين أن النافع والضار هو الله وحده ويفسرون لهم ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: 106].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: 5 - 6].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62].

كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة، كالاتحاد، ووحدة الوجود، والحلول؛ إن عقيدة الاتحاد من عقائد الصوفية الفاسدة المتأثرة بالنصرانية المنحرفة،

(1) انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص(16، 17، 18).
(2) انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص(132).
(3) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، حسن إبراهيم، ص(47).

والديانة الهندية القديمة، ومعنى ذلك أن المخلوق يتحد بالخالق، تعالى الله عن قولهم علوّاً عظيماً، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: 102، 103].

أما وحدة الوجود، فإنهم يعتقدون أن كل شيء في الوجود هو الإله سواء كان حيواناً أو جماداً، أو إنساناً أو غير ذلك، وهي عقيدة فاسدة مضمحلة لا أساس لها من عقل ولا شرع ولكنها من وحي الشيطان، إن الحركة السنوسية حاربت هذا المعتقد الفاسد الباطل، وسارت على مذهب أهل السنة والجماعة الذي يقول بأن الله سبحانه بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصف بصفات الكمال فله الأسماء الحسنى والصفات العلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فهو المتفرد بالجلال المتصف بصفات الكمال المنزه عن النقائص والعيوب فمن اعتقد أن الله سبحانه وتعالى متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب، والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وخالف الفطر والشرائع، وقد كفّر الله تعالى النصارى الذين قالوا: إن الله اتحد بعيسى عليه السلام فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17] فكيف بمن يقول إن الله متحد مع جميع مخلوقاته فهو أولى بأن يكون كافراً لأنه يعتقد إن الله متحد بجميع ما في هذا الكون[1].

إن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحتة ليست من الإسلام في شيء، وإن علماء الحركة السنوسية وقفوا ضدها بكل حزم وعزم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص].

وحاربت الحركة السنوسية عقيدة الحلول التي تقول بأن الله يحل في الأشخاص تعالى الله عن قول الحلوليين علوّاً كبيراً.

«والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة؛ لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه دخل به الإله وصار مع الله وحدة واحدة، ولا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من إيمان»[2].

لقد حاربت الحركة السنوسية العقائد الفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله على نفسها، ودعت غيرها بالالتزام بذلك.

---

(1) انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود، ص(285).

(2) انظر: المؤامرة على الإسلام، للجندي، ص(52).

ب - تحكيم الكتاب والسنة:

أيقن ابن السنوسي وإخوانه من العلماء أن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عز، ولا نصر، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والقبائل، ومن ثم على مستوى الدولة.

واسترشد ابن السنوسي فيما ذهب إليه بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: 59].

وبقوله ﷺ في حجة الوداع: (يا أيها الناس: إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي)[1].

إن ابن السنوسي حرص على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته، ومجتمعه، وكان يرى أن ذلك خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة واقترابها من نصر الله تعالى، وأن للتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، آثار دنيوية، كالاستخلاف، والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة، والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل، وانزواء الرذائل، وأما الآثار الأخروية، كالمغفرة، وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة وعلو المنزلة ومعية التكريم، وإليك هذه الرسالة التي أرسلها ابن السنوسي إلى أهل وجنقة في تشاد لتدلنا على ما ذهبنا إليه.

قال -رحمه الله- بعد البسملة: «إنه من عبد ربه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي. إلى المكرم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الجنقاوي وكافة جماعة بلد وجنقة كبيراً وصغيراً ذكراً وأنثى سلم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم آمين السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته وبعد... فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية أحوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ وشرف وكرم وعظم، وثانياً فإنا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: 70] والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان، وأداء زكاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق. وشهادة الزور، وغير ذلك مما حرم الله ورسوله، فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران

(1) انظر: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (2/ 890) رقم (1218).

ولا يحوم حول حماه حرمان، وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسوله عليهم، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبه الغافل، ونعلم الجاهل، ونرشد الضال. ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين، وعندما قدمنا لهذه النواحي اشتغلنا بدلالة العباد إلى الله، وما رأينا أحداً من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلم الناس دينهم الذي ارتضاه، والآن فإن أتباعنا. جماعة زوية. الذين هم أهل تزور (موقع) المعلومة عندكم قدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبوا منا بناء زاوية بموقع تزور المذكورة. وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وأبناءكم كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وإصلاح ذات البين بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم عاملين بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:9] ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:1]. وبقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:114] فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة:2] وبقوله ﷺ: «**كونوا عباد الله إخواناً وعلى الدين أعواناً**» وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها؛ بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:46]، وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سنة رسول الله ﷺ ولا تخافون بعد ذلك إن شاء الله من أحد، وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنه وكرمه آمين، ودمتم بخير عافية، ونعم متواترة ضافية)[1].

وهذه الرسالة تعطينا منهجية ابن السنوسي في دعوته وأسلوب عرضه، وطريقة خطابه، وجزالة ألفاظه، وروعة بيانه.

ج - صدق الانتماء إلى الإسلام:

أيقن ابن السنوسي أن من أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها: الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص(152).

لقد تربى أتباع السنوسية على أن الإسلام منهج للحياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية، ولقد تربى أتباع السنوسية على الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

لقد كان الانتماء إلى الإسلام في التربية السنوسية فوق الانتماء للأوطان، والأقوام، والنعرات الجاهلية.

د - طلب الحق والتحري في ذلك:

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه، يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله، وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن الله تعالى في كتابه الكريم، يبين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32].

قال القرطبي -رحمه الله-: «قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول فإن الحق فيها في طرف واحد»[1].

ولذلك نجد ابن السنوسي - وهو المالكي المذهب والثقافة - يخالف مذهب مالك في بعض المسائل عندما تبين له أن الحق خلاف مذهب الإمام مالك، فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر في الصلاة أثناء القصر... إلخ وقد حذا أتباعه حذوه، وهذا يدلنا على تحري ابن السنوسي وأتباعه للدليل الشرعي والتمسك به، ونقد كثيراً من آراء التصوف والمخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت وسائل الوصول إلى الحق، تقوى الله، والتجرد والإخلاص.

هـ - تحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع:

أيقن ابن السنوسي أن بتحقيق الأخوة بين القبائل، وأتباع الحركة، تتحقق وحدة الصف، وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد الحركة، كما كان على علم بأن الأخوة منحة من الله ﷻ، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: 62-63].

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن (8/ 336).

إن الأخوة في الله بين أتباع الحركة السنوسية أورثتهم شعوراً عميقاً، وعاطفة صادقة، ومحبة وودّاً واحتراماً فيما بينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

إن الأخوة في الله ملازمة للإيمان، ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخوة ولذلك حرص عليها السنوسيون وأتباعهم، قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

لقد حرص السنوسيون أن يطبقوا تلك الصورة الجميلة لأصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29].

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي جعلت الحركة السنوسية تصمد في وجه أعتى المحن التي تعرضت لها.

(1) انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (1/ 11).

obeikandl.com